مدنية

ترتيبها ٢

سورة البقـرة

آياتها ٢٨٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓمٓ ﴾

الله أعلم بمراده من هذه الحروف العربية، وأقرب الأقوال أن فيها إظهاراً لعجز المعارضين عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع نزوله بحروف لغة العرب التي يعرفونها.

(٢) ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

هذا القرآن العظيم الذي لا يماثله كتاب في صدقه وبركته وبلاغته، وهو لا شك فيه بل فيه اليقين التام، وهو المزيل لكل حَيْرة وشرك وشبهة، وهذا الكتاب مرشد لمن اهتدى به لخير الدارين، فهو يدله على الهدى، ويجنبه الردى، ولا ينتفع به إلا المؤمنون به، وهم من تقربوا من رحمة الله بطاعته، وابتعدوا عن عذابه باجتناب معصيته.

(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

هؤلاء المتقون يُصَدِّقون بما أخبر به الرسول ﷺ من أخبار الغيب؛ كالقيامة، والجنة والنار، والأخبار الماضية والمستقبلة، ويؤدون الصلاة على أكمل وجه، ولم يقل: يصلون، بل يقيمون، أي: بخشوعها وبشروطها وسننها، فتنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وهم ينفقون مما رزقهم الله في الزكاة والصدقة والصلة، ووجوه البر وأنواع القربات ولا يدخرون شيئًا في ذات الله، فالرزق من الله لا منهم، وينفقون بعضها لا كلها.

(٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

وهم الذين يصدقون بما نزل على محمد ﷺ، ويصدقون بما نزل على الرسل قبله من الكتب - والمؤمنون يؤمنون بجميع الكتب، وجميع الرسل بلا تفرقة - وهم يعلمون علم يقين أن اليوم الآخر حق، وأن الله يجمع الناس ليوم لا ريب فيه ليحاسبهم.

(٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

هؤلاء على هدى عظيم من خالقهم ورازقهم؛ لأنهم فعلوا ما أمر به، واجتنبوا ما نهى عنه، فلا هدى أعظم من هداهم، وهم فازوا بالمطلوب، ونجوا من المرهوب؛ لأنهم سلكوا سبل النجاة، وحادوا عن طريق الهلاك.

(٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أما من كفر بالله ورسوله ﷺ فسواء وعظتهم أم لم تعظهم فلن يجدي فيهم الوعظ، ولن ينفعهم الذكر، ولن يصدقوا بما جئت به؛ لأنّ أعينهم في غطاء عن ذكر الله.

(٧) ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

فالله حجب الحق عن قلوبهم فلا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر، وغَطَّى على أسماعهم، وغَشَّى أبصارهم، فمنافذ العلم عندهم مغلقة، فلا يفهمون الحق، ولا يسمعون الهدى، ولا يبصرون الرشد، وقد أعد الله لهم في الآخرة عذاباً لا يُطاق في نار جهنم جزاءً لأعمالهم.

obeikandl.com

﴿٨﴾ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾

وهناك صنف منافق من الناس يظهر غير ما يبطن، فهو مؤمن باللسان، كافر بالجَنان، يدّعي أنه مصدق بما جاء عن الله، والحقيقة أنه في سره مكذب، وما دخل الإيمان قلبه.

﴿٩﴾ ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

وهؤلاء يظنون أنهم بهذا الكلام يحتالون على الله وعلى عباده الصالحين، وأن هذه الحيلة سوف تستقيم، ولكن هيهات، فهم يلعبون على أنفسهم، ويسعون في هلاكهم، وما يستخفّون إلاّ بأنفسهم، وما يقطعون إلا وتينَهم ولكن لا يدرون، فهم جاهلون بقبيح ما يفعلون، غافلون عن سوء ما يصنعون.

﴿١٠﴾ ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾

في قلوبهم مرض الشبهة والتكذيب، وزادهم الله بزيغهم حيرة وشكًا واضطرابًا؛ لأن جزاء السيئة السيئة، وثواب الحسنة الحسنة، وقد أعد الله لهم عذابًا مؤلمًا، في الدنيا بأنواع المثلات، وفي الآخرة بأصناف العقوبات؛ لأنهم كذّبوا بالصدق وكذبوا في القول، وأساؤوا الفعل، فالكذب أصل خطاياهم.

﴿١١﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾

إذا نُصح هؤلاء المنافقون بترك أفعالهم الشنيعة؛ لأن فيها فسادًا في الأرض، فهم أسباب النفاق والشقاق، وقبيح الأخلاق، وتفريق الجمع، ادعوا كذبًا أنهم يريدون الخير والنفع العام، وهذا شأن كل مفسد.

﴿١٢﴾ ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

لكن هؤلاء المنافقين هم المفسدون الذين لا أشد إفسادًا منهم، فهم فاسدون في أنفسهم لاعتقاداتهم الباطلة، وأفعالهم القبيحة، مفسدون لغيرهم لسعيهم بالفتنة بين الناس، ولكنهم مع ذلك لا يدرون بفسادهم، فقد انقلبت الأمور، وانعكست عليهم المقاصد، فصار الشر عندهم خيرًا، والباطل حقًا، ومن لم يعلم بفساده كان أجدر ألا يعود إلى الحق، ويكفيهم خزيًا أنّ الله كَذَّبهم، ومما قيل: كفى لصاحب الكذب فضيحة أن يقال له في وجهه: كذبت.

﴿١٣﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

وإذا طُلب من هؤلاء المنافقين أن يدخلوا في الدين ويتبعوا الرسول ﷺ كما فعل المؤمنون، قالوا كيف نفعل مثل فعل هؤلاء الجُهلاء السفهاء - يقصدون الصحابة - لأن من ضحّى في سبيل الله، وأوذي من أجله، وتعرض للأخطار عندهم مخالف للعقل المعيشي الجبان الذي يدندن على الشهوات واللذات، فردَّ الله عليهم وبيّن أنهم هم الجهلة الأغبياء؛ لأنهم فوتوا أعظم المصالح، وخسروا أجلَّ المطالب، ووقعوا في أخطر المهالك، وعثروا في أودية الحسرات ومع ذلك لا يعلمون سوء ما فعلوه، وقبيح ما ارتكبوه، فانحرافهم لا يُرجى الرشد بعده.

﴿١٤﴾ ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾

هؤلاء المنافقون إذا خالطوا المؤمنين أظهروا الإيمان بألسنتهم، وأبطنوا الكفر في قلوبهم؛ ليحقنوا دماءهم، ويعصموا أنفُسَهم، ويحفظوا أموالهم، لكن إذا رجعوا إلى أتباعهم ومن هم على شاكلتهم في الكفر قالوا: نحن معكم فيما تعتقدون، وإنما خدعنا هؤلاء المؤمنين وضحكنا عليهم، وإلا فنحن لسنا معهم ولا نَدِين بدينهم، أرادوا أن يجمعوا بين عشرة الكافرين وصحبة المسلمين، فلم يستقم لهم ذلك؛ لأنه لا يجتمع الضدّان.

﴿١٥﴾ ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

الله يستهزئ بهم جزاء استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين، ويمهلهم حتى يتمادوا في طغيانهم وظلمهم وغوايتهم وانحرافهم، وهم في غفلة وعمهٍ عن هذا.

١٦ ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

هؤلاء المنافقون دفعوا الهدى الذي بُعث به محمد ﷺ ثمنًا للضلالة التي شروها ورغبوا فيها، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فبئس والله تجارتهم، وخسرت صفقتهم، وخاب بيعهم، فمن هذا منهجه فلن يهتديَ أبدًا.

١٧ ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾

مثلهم مثل من كان في ظلمة عظيمة، ثم أوقد نارًا فلما أبصر بها ما حوله أطفأ الله عليه تلك النار فبقي في ظلمة لا يرى شيئًا، وهؤلاء أضاء لهم الإسلام في الدنيا فحقن دماءهم، وحفظ أموالهم، ثم توفاهم الله فأخزاهم وعَذَّبهم، ونكَّل بهم.

١٨ ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

فهم لا يسمعون الحق، ولا ينطقون به، ولا يرونه، وإن كانت حواسّهم سليمة، فهم لا يرجعون عن الضلالة بعد أن اشتروها، ولا إلى الهدى بعد أن باعوه.

١٩ ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

أو مثلهم كمثل من أصابه مطر عظيم مع ظلمة ليل وظلمة سحاب وظلمة مطر، فصوت الرعد يزعجه، ورؤية البرق تخيفه، والمنافقون إذا سمعوا القرآن خافوا من وعيده، وراعتهم أوامره، ونفروا من تعاليمه، فهم يَسُدُّون آذانهم عن سماعه، ومع هذا فالله قادر عليهم لا يفوتونه، محيطٌ بهم لا يُعْجِزونه.

٢٠ ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

كما يوشك البرق أن يذهب ببصر من رآه، فكذلك زواجر القرآن توشك أن تذهب برؤية من لم يهتدِ به، والمنافقون ينتفعون بالإسلام انتفاعًا دنيويًا ظاهرًا في الحياة الدنيا في حقن الدماء، وحفظ الأموال، كما ينتفع من يمشي في ضوء البرق زمنًا قصيرًا ثم تطبق عليه الظلمة، كذلك المنافقون في حيرة وشك، ثم عذابٌ دائم في نار جهنم، مع أنه من المعلوم أن الله قادر على طمس أبصارهم وأخذ أسماعهم؛ لأن الله لا يعجزه شيء لكمال قدرته جل في علاه.

٢١ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

المستحق للعبادة هو الله -جل في علاه- فلا يجوز أن يُشرك معه في ألوهيته أحد؛ لأن الربوبية له، فهو الخالق للناس وحده لا سواه، فالخالق أحق أن يُعبد، نادى الله عباده - وهذا أول نداء في القرآن - وأمرهم أن يعبدوه فهو خالقهم وخالق من قبلهم ، والرب حقيق أن يُعْبَد، والعبد حقيق أن يَعْبُده؛ ليتقي سخطه وأليم عقابه، وهذه العبادة هي مقصود الله من الخليقة، ومن أجْلِ عبادته أوجد الخلق وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، فهي المقصود الأعظم، والمطلب الأسمى.

٢٢ ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أليس الله هو الذي مهَّد الأرض كالفراش للناس، ووطأها لهم ليعيشوا على ظهرها، ويتمتعوا بأنواع النعم عليها، وصيّر السماء سقفًا لهذه الأرض، وجعل فيها ما ينفع الإنسان من الشمس والقمر والنجوم والكواكب، ثم أنبت - سبحانه - بالماء الذي أنزله أنواع الثمار والحبوب من فواكه وخضراوات مما لذَّ وطاب وراق العينَ، ولذّ في الفم، وما دام أن الرازق هو الله، فهو أحق أن يُشكر وحده، فكيف تعبدون غيره، وأنتم تعلمون أن لا خالق ولا رزاق غيره.

٢٣ ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

إن كنتم شاكين في هذا الوحي الذي نزل على الرسول ﷺ فتعالوا بسورة من مثله في البيان والبلاغة، فأنتم أهل فصاحة وبلاغة، والكلام متاح لكم، واستعينوا بمن شئتم به من أعوانكم ليساعدوكم على معارضة هذا القرآن بسورة مثل إحدى سوره، إن كنتم صادقين أنكم تستطيعون المعارضة والتحدي، ولكن هيهات، لقد أُفحِموا - والله - غاية الإفحام، وهُزموا شرَّ هزيمة.

٢٤ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

فإن لم تستطيعوا على هذه المعارضة ولن تستطيعوا؛ لأن القرآن كلام الحكيم الخبير فارحموا أنفسكم بالإيمان بالله؛ لينجيكم من نار تلظَّى، فلن يُتَّقى عذابه إلا باتباع رسوله ﷺ، وأنتم لا تقدرون على عذاب النار التي تشتعل بالناس وبالحجارة، والله جعلها مثوى من كفر به سبحانه. [وفيها أن المؤمن العاصي لو عُذب في النار لا يخلَّدُ فيها كما يُخلَّدُ الكفار].

٢٥ ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

وبشِّر - يا محمد - عبادنا الصالحين من أتباعك بما أعددنا لهم من النعيم المقيم، والخير العميم جزاءً لإيمانهم وأعمالهم الصالحة من توحيد وصلاة وصيام وصدقة وحج ونحوه، فهم في جنة ثمراتها متشابهة الألوان، مختلفة الطعوم حتى يخيّل إلى مَنْ سكنها أن الثمرة إذا قُدمت له بعد الثمرة أنها هي أعيدت له، وهي مختلفة في ذوقها؛ لزيادة النعيم، وعندهم زوجات جميلات ناعمات مطهرات مما يَعْرِض لنساء الدنيا من نجاسات وقاذورات وأخلاق رديئة، ومع هذا النعيم فهم مقيمون أبدًا، متنعمون سرمدًا لا ينقطع عنهم النعيم ولا يخافون الزوال والانتقال.

٢٦ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾

الله لا يستحيي أن يضرب الأمثال بما شاء من خلق البعوضة فما فوقها، فالكل خلقه، فبديع حكمته في خلق البعوضة والنملة مثلُ عجيب خلقه في الفيل والجمل، بل إنّ تركيبه للصغير الحقير يلفت النظر أكثر من الكبير، والمؤمن عند سماع هذه الأمثال يعتقد أن هذا المثل صدق لا مِرْيَة فيه من عند الله، بخلاف الكافر الذي يقف حائرًا مترددًا، وكل مثل يُساق يزداد به المؤمن إيمانًا والكافر كفرًا؛ ولهذا تَجِد عند العالم بآيات الله من اليقين والرسوخ؛ لتوارد الأدلة وكثرة البراهين ما لا يوجد عند الجاهل المعرض، وتجد المنحرف الفاجر يزداد فجورًا عند سماع البيّنات والحجج الواضحات.

٢٧ ﴿ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

هؤلاء هم الذين ينقضون العهد الذي بينهم وبين ربهم من الإيمان به واتباع رسوله ﷺ، وكل ميثاق عقدوه على أنفسهم من الإيمان والنذور والمعاهدات؛ لأنهم فَجَرَةٌ، وكل ما أمر الله به أن يوصل من بر الوالدين، وصلة الرحم، وحق الجار، قطعه هؤلاء العصاة المردة، فلا مع الخالق صدقوا، ولا مع الخلق وفَّوا، ثم هم يسعون في الأرض فسادًا من إشعال الفتن، ونشر الفرقة، واختلاف الكلمة، والتربص بالمؤمنين، وحبك المؤامرة على المسلمين، فهم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وحياتهم وسعادتهم، فلا أشد منهم هلاكًا، ولا أغبن منهم صفقة، فالخسارة المالية تعوض، ولكن خسارة الدين والقيم لا عوض منها؛ لأن خسارة هؤلاء المكذبين خسارة دائمة في الدارين، فلعظم خسارتهم حصر الخسارة فيهم. ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾.

﴿٢٨﴾ ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

كيف تجحدون ألوهية ربكم وقد كنتم في عالم العدم فأوجدكم في الحياة بعد الفناء، ثم هو بعد هذه الحياة يميتكم ثم يخرجكم من قبوركم للحساب، أفلا يستحق من هذا وصفه - جل في علاه - أن يُعبد ويُوحّد؛ لأنه لا خالق ولا محيي ولا مميت إلا هو؟ فلماذا لا تفردونه بالعبودية؟ فإن من يملك الإحياء والإماتة والبعث هو وحده الذي تجب عبوديته، لكن عجبًا لكم جحدتم بهذا الحق كله، وكَفَرْتم بهذا الإحسان جميعه، فصيّرتم العبادة لغيره، وأشركتم معه سواه، فأي جرم أعظم من جرمكم؟ أم أي ذنب أكبر من ذنبكم؟.

﴿٢٩﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

فالله - سبحانه - الذي يستحق العبادة، وهو الذي أوجد لكم كل ما في الأرض من غذاء وماء وهواء ودواء وضياء، وجعل الأصل فيما خلق لكم الحل والطهارة، وبعدما خلق لكم ما في الأرض من نِعَمٍ، قصد إلى السماء فأبدعهن وحسّن خلقهن، وأحكم صناعتهن، وجعلها سبع سموات، ومع هذا الخلق والإبداع فعلمه - سبحانه - محيط شامل، فله - سبحانه - كمال الخلق، وتمام العلم، فمن كان هذا وصفه من القدرة على الخلق وكمال العلم مستحق أن يُعبد وحده، وأن يُشكر بامتثال أمره واجتناب نهيه.

﴿٣٠﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يخبرنا الله أنه أخبر ملائكته أنه سوف يجعل في الأرض من يَعْمُرها ويحييها بالإيمان، وهم آدم وذريته، وبعضهم يخلف بعضًا؛ ليبقى العمار والنماء والحياة، وتتم سنة الابتلاء وحكمة الخليقة، فقالت الملائكة: أتجعل في الأرض خليفة يفسد فيها بالعصيان والظلم والفتنة ويسفك الدماء المعصومة بغير حق. لأن الملائكة سالمون من الذنوب والخطايا، منزهون عن الظلم والعدوان، عندها أخبرهم سبحانه أنه يعلم ما لا يعلمون من سر الخلق وعواقب الأمور وبديع الحكم التي لا يطلع عليها إلا الله من إقامة الدين والدعوة إلى الله ووجود الأنبياء والعلماء والأولياء والعباد والزهاد ومَنْ يَصْلُحُ لِعِمَارة الأرض.

﴿٣١﴾ ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

علَّم الله آدم أسماء المسميات من المخلوقات من سماء وأرض، وجبل وشجر ونحوها؛ ليتميز عليهم بالعلم الذي هو فوق كل شرف، وأجَلُّه ما كان من الله - عز وجل - كعلم آدم وعموم العلم الشرعي، وبعدما علم آدم الأسماء عرض المسمّيات على الملائكة ليكون التفضيل بعد الامتحان، ويكون التكريم بعد الابتلاء، وقال للملائكة: أخبروني بأسماء هذه المخلوقات إن كنتم صادقين بأنكم أهل فضيلة وميزة على آدم وذريته.

﴿٣٢﴾ ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

قالت الملائكة لما أمرهم سبحانه بذكر أسماء المسميات: يا ربنا تبارك اسمك وتقدّس نحن لا نستطيع ذكر هذه الأسماء إلا إذا علَّمتنا أنت؛ لأن علمك واسع محيط، وأنت مع العلم حكيم، فعلمك وحكمتك من أجلِّ صفاتك، وهذا يدلك على أن العالم الحكيم هو الرباني بحق، فمن فاتته الصفتان أو إحداهما فاتته الإمامة في الدين، وانظر كيف حصروا العلم والحكمة لله وحده؛ لأنه الأعلم الأحكم تقدس اسمه.

﴿٣٣﴾ ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

فلما عجز الملائكة عن معرفة الأسماء أمر الله آدم بعدما علّمه أن يذكر الأسماء أمام الملائكة؛ ليظهر فضله ويُبَيِّن شرفه وليأخذ الاصطفاء باستحقاق، فأخذ آدم يذكر أسماء المسمّيات أمام الملائكة، حينها قال الله للملائكة: أما

أخبرتكم أنني العالم بكل ما في السموات والأرض وأعلم ما تبدون من أعمال وأقوال وما تكتمون من عقائد وأسرار، وهذا يدلك على فضل العلم؛ لأنه الصفة الوحيدة التي فاق بها آدم على الملائكة، ثم إن الله مدح نفسه بالعلم، ثم إن الملائكة اعترفوا بالفضل لآدم؛ لأنهم أدركوا شرفه عليهم بما علّمه الله، فمن أراد العلو والرفعة فعليه بطلب العلم النافع الذي أنزله الله على رسله، فهو الذي تحصل به الفضيلة ويرفع به نقص الإنسان وغفلته ويعظم شأنه.

﴿٣٤﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

فلما ظهر للملائكة فضل آدم عليهم بالعلم أمرهم - سبحانه - بالسجود إكرامًا له لما ميّزه الله عليهم بعلم الأسماء؛ لأنه لا يوجد أفضل من صفة العلم، فامتثلوا أمر ربهم وسجدوا له؛ لأنه يجب على المفضول احترام الفاضل اعترافًا وإكرامًا، ولكن إبليس لكبره وشقاقه امتنع عن السجود، وضرب الأمثال كبرًا وعتوًا، فأذله الله وأخزاه وطرده ولعنه، وهذا شأن أتباعه من أهل الكبر لا يذعنون للحق، فمرض الشبهة أعظم من داء الشهوة، فالأول مرض إبليس؛ ولذلك طُرد، والثاني أصاب آدم لما أكل من الشجرة، لكنه تاب فتاب الله عليه، فالواجب على العبد المبادرة عند الأمر وترك التسويف والاعتراض، وهذا السجود لآدم سجود تحية وتعظيم، لا سجود عبادة الذي لا يصح إلا لله.

﴿٣٥﴾ ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ثم أمر الله آدم أن يسكن الجنة مع زوجه في أمن وأمان وخير ورضوان، في عيش هنيء لا كدح فيه ولا مشقة، بل فيه ألوان من النعيم وصنوف من اللذائذ وأنواع من الثمار، مما تشتهيه الأنفس، ويسر النظر، ويشرح البال، ونهاهم - تعالى - عن أكل نوع من الشجر ابتلاءً منه لهما وامتحانًا ليظهر صبرهما وجهادهما للنفس، وحذرهما من مغبة ارتكاب المنهي، فإن من فعل ذلك بعد البيان فقد ظلم نفسه، وعصى ربه.

﴿٣٦﴾ ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

فاجتهد الشيطان في إبعادهما عن الجنة حسدًا لهما، وسوّل لهما ولبّس عليهما فوقعا في فَخِّه المنصوب، وهذه بداية الصراع العالمي بينه وبين عباد الله إلى يوم الدين، فلما ارتكبا المحظور، حُرما من الحبور والسرور، وهذا جزاء من عصى فإنه يُحرم بسبب معصيته من مقامات الأمن والرعاية بحسب معصيته، فيا شؤم المعصية، ويا سوء عاقبتها، ثم أمر الله آدم وحواء والشيطان بالنزول إلى الأرض، وجعل بينهم العداوة الأبدية لتتم سنة الابتلاء والمدافعة والمجاهرة، وجعل الأرض لبني آدم دارًا للعيش والسكنى والتمتع مدة معلومة من الزمن حتى يأذن الله لقيام الساعة ونهاية العالم، فالمستقر سكن ووطن، والمتاع غذاء وماء فلا بقاء للدنيا، ولا لأهلها، وإنما سوف يعودون لإحدى الدارين دار آدم الجنة، ودار إبليس النار.

﴿٣٧﴾ ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

من رحمة الله ولطفه بآدم وذريته أن علمه كلمات يستوجب بها الرحمة والغفران، وهي كلمات الاعتراف بالذنب وإعلان التوبة وطلب العفو، وفي هذا فضل الاستغفار، وأن الذنب قد تكون فيه مصالح عظيمة للعبد إذا تاب وأناب من الانكسار والندم والاجتهاد في الطاعة والبكاء والخوف والتواضع لعباد الله.

﴿٣٨﴾ ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ولما أمرهم - سبحانه - بالنزول إلى الأرض من الجنة بَيَّنَ لهم أنه لن يتركهم هملاً، بل سوف يرسل إليهم رسلاً، ويُنزل إليهم كتبًا، من آمن بالله واتبع رسله واهتدى بهداه فله الأمن من الله، فلا يخاف مما يستقبله؛ لأن الله حافظه وكافيه ولا يحزن على ما مضى، فالله يغفر له ويتجاوز عنه، والسعادة مبنيَّة على أصلين: - لا خوف، ولا حزن.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أما من أعرض عن هدي الله وردّ ما جاءت به رسله، وكتم الحق وكذب به فالنار جزاؤه خالدًا مخلدًا فيها، فانظر كيف بيَّن الله لعباده مصيرهم حتى يكونوا على أهبة وبينة، وتكون الحجة لله عليهم، فلم يأخذهم قبل البلاغ.

﴿٤٠﴾ ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾

ثم نادى الله بني إسرائيل وذكَّرهم بأنهم أبناء النبي الكريم يعقوب، فكأنه يقول لهم: أين أنتم من أبيكم الذي كان شاكرًا لربه، عارفًا لحق مولاه، ما لكم أنتم خالفتم أباكم فكفرتم بالله وحاربتم رسله وعصيتم أمره؟!

ثم ذكَّرهم - سبحانه - بنعمه عليهم لعلهم يراجعون أنفسهم، ويستحيون من ربهم، فهل جزاء هذه النعم العصيان وقتل الأنبياء وكتم الحق؟.

وذكَّرهم بعهده عليهم الذي قطعوه على أنفسهم من الإيمان به واتباع رسله، فإذا فعلوا ذلك نصرهم وأعزهم ومكَّن لهم في الدنيا وأكرمهم في الآخرة بجنات النعيم، وأمرهم ألا يخافوا سواه، بل يكون الخوف كله من الله؛ لأنه مالك الضر والنفع، وبيده الثواب والعقاب.

﴿٤١﴾ ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾

واتبعوا هدي النبي الأمي محمد بن عبدالله ﷺ وما جاء به من الوحي؛ لأنه مصدق لما جاء به موسى عليه السلام من التوراة، بل يؤيده ويعضده، فكيف تفرقون بين الرسولين والكتابين، واحذروا أن تكونوا أول المكذبين بهذا النبي فيقتدي بكم غيركم فتكونون أسوة شر، ومفتاح فتنة وصدٍّ عن سبيل الله.

وإياكم أن تشتروا بآياتي التي عندكم عرض الدنيا الزائل فتكتموا الحق وتشهدوا الزور، وتكذبوا مقابل رشوة أو مراباة أو كسب خبيث، فالدنيا كلها ثمن قليل فكيف بجزء منها، وعليكم باتقاء الله وحده بفعل ما أمر واجتناب ما عنه زجر، فلن يحول بينكم وبين عذاب الله إلا تقواه.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

وإياكم يا بني إسرائيل أن تخلطوا الحق بالباطل، فتمزجوا بين الصدق والكذب لتروجوا على الناس باطلكم؛ لأن بعض الفجرة يذكر شيئًا من الحق ليُصدَّقَ في باطله، وإياكم أن تكتموا الحق الذي ظهر وبان بقيام الأدلة والبراهين من نبوة محمد ﷺ وصدق رسالته وأن دينه حق وشرعه صدق، وأنتم تعلمون أنه رسول من عند الله، فهو مكتوب عندكم بعلاماته وصفاته فكيف تجحدون ما تعلمون.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

وعليكم بإقامة الصلاة التي أمركم الله بها؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ما أُقيمت على الوجه الصحيح، لا مجرد صلاة بلا خشوع وحضور، وأدُّوا زكاة أموالكم لتزكوا بها نفوسكم وتُحطَّ عنكم خطاياكم، ويرضى عنكم ربكم، وتسخو قلوبكم، ويذهب الشح عنكم، وصلوا مع المصلين، واستدل بهذا من أوجب صلاة الجماعة، وقيل: اخضعوا لربكم مثل ما خضع له عباده الصالحون.

﴿٤٤﴾ ﴿ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

ما لكم تزكون الناس بكلامكم وأنتم في ظلمة المعاصي واقفون، تأمرون غيركم ولا تأتمرون، وتنهون عن الذنوب ولا تنتهون، ثم عندكم كتاب يُتلى فيه حجج بيّنات، وبراهين واضحات، ومع ذلك لم تستضيئوا بنوره، ولم تهتدوا بهداه، وإذا لم يزجركم العلم أفلا يزجركم العقل! فإن العقل الراجح يدعو إلى الفضائل ويزجر عن الرذائل؛ ويمنع من السفه ولهذا قال: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾

وعليكم بالصبر على أداء المأمور واجتناب المحذور - والصبر قوة من قوى النفس تدخل في كل نظام الحياة وأعمالها -، وداوموا على الصلاة؛ لأنها تعين صاحبها في الأزمات، وتريحه في الكربات، وفي الحديث: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**»،

فهي قرة العيون، وبهجة النفوس، وهذه الصلاة كبيرة وشاقة وصعبة إلا على الخاشعين المخبتة قلوبهم وجوارحهم للجبار جل جلاله، ولا يشق عليهم أداؤها في وقت النوم والراحة والبرد والسفر والمرض، وأما المنافق فمن أشق شيء وأصعبه عليه.

﴿٤٦﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

وهؤلاء المؤمنون الخاشعون الصادقون يتيقنون بالبعث بعد الموت، ولقاء الله للحساب، والرجوع إليه للثواب والعقاب، وهذه مسألة الإيمان باليوم الآخر التي هي من أركان الإيمان العظيمة، وهي التي تحمل صاحبها على تقوى الله؛ لأنه يعلم أنه سوف يلقاه في يوم لا ريب فيه.

﴿٤٧﴾ ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يا أبناء النبي الكريم الصالح يعقوب الذين لم تفعلوا فعله في الاستجابة لنا، لماذا لا تذكرون نعمنا عليكم، أما نجيناكم من العذاب؟ أما ظلّلنا عليكم السحاب؟ أما والينا عليكم النعم، وصرفنا عنكم النقم وفضلناكم على عالمي زمانكم بكثرة الأنبياء منكم، ونزول الكتب فيكم ونصركم على الأعداء مع كثرة أياديا عليكم، فهلا للنعيم شكرتم وللإحسان ذكرتم؟

﴿٤٨﴾ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

وخافوا يومًا تعرضون فيه على الله، لا تدفع نفس عن نفسها شراً، ولا تجلب لها نفعًا، ولا شفاعة تقبل لكافر، ولا يُفتدى فيه من العذاب بمال، ولا ناصر لمن حق عليه العذاب ينقذه، فلا شافع قبل العذاب، ولا فدية إذا حل، ولا ناصر إذا وقع، فهي أربعة يتعلق بها الكفار في الآخرة لا تنفعهم نفسٌ بدل نفس تفديها، ولا صاحب جاه يشفع لينجيها، ولا ثمن مال من الهلاك يحميها، ولا مدافعٌ صاحب قوةٍ يكفيها.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

واذكروا يا بني إسرائيل نعمتنا عليكم يوم نجيناكم وسلَّمْناكم من فرعون وقومه لما هربتم من بطشه، فأدرككم ففلقنا لكم البحر، وخرجتم سالمين من بعد ما كان يذبح كل مولود لكم من الذكور، ويترك كل مولود من الإناث للخدمة في بيوت قوم فرعون، وهذه ابتلاءات واختبارات بالنعم والنقم عظيمة، ولكنكم كفرتم النعم، ونسيتم النقم، وخير ما تَبْكُت به اللئيم تذكيره بما أسديت إليه من نعيم.

﴿٥٠﴾ ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

واذكروا يا بني إسرائيل يوم شققنا لكم البحر وقد ضاق عليكم الأمر؛ لأن البحر كان من أمامكم والعدو من خلفكم، وقد أشرفتم على الهلاك فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون، وقد كانوا طالبين لكم، وأنتم مطلوبون، فجعلنا الدائرة عليهم، وأغرقناهم وأنتم تبصرون غرقهم زيادة في التشفي منهم، ولئلا تنكروا هذه النعمة أو لتقوم بها عليكم الحجة.

﴿٥١﴾ ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

واذكروا حين واعدنا موسى قبل أن نكلمه بطور سيناء، وجعلنا له أربعين ليلة قبل هذا الموعد، وكل هذا من أجل هدايتكم وصلاح أموركم، فكفرتم الإحسان، واتخذتم العجل إلهًا يُعبد من دون الله بعد غياب موسى، فأي ظلم أظلم من فعلكم؟! وأي بغي أشد من بغيكم؟ لأنكم صَدَّقتم الدجل، وعبدتم العجل، ورضيتم بالجهل، وشتان بين أمة موسى وأمة محمد ﷺ، فأمة موسى غاب نبيّها أربعين يومًا فجعلوا العجل معبودهم، وأمة محمد ﷺ مات نبيها والخير فيهم إلى يوم القيامة.

٥٢ ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وبعد هذا الصنيع المشين منكم والفعل السيئ القبيح عفونا عنكم، وسامحناكم وتجاوزنا عن أخطائكم لعلكم ترجعون إلى الجليل وتعترفون بالجميل، وتحفظون هذا الإحسان منا.

٥٣ ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

وتَذَكَّروا يا بني إسرائيل يوم أكرمنا موسى بالتوراة وبيان الحلال والحرام، هدايةً لكم وإرشادًا لعلكم تستقيمون على أمر الله، وتهتدون بهداه.

٥٤ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

واذكروا حين نهاكم موسى عن عبادة العجل، وأنكر عليكم فعلكم الشنيع الفظيع في عبادتكم لعجل يخور، وتمثال كالثور، وعرض عليكم موسى التوبة إلى الله والعودة إلى دينه؛ لأنه سبحانه هو خالقكم ورازقكم ومبدعكم، لا ربَّ غيره ولا إله سواه، وهذه التوبة تقتضي منكم أن يقتل منكم البريءُ، المجرمَ؛ لأن في هذا تطهيرًا لكم من دنس الذنب وبراءةً للذمة، ودليلاً لصدق التوبة وامتثالاً للأمر، فلما فعلتم تاب الله عليكم من ذلك الذنب العظيم والجرم الأثيم؛ لأنه - سبحانه - يتوب على من تاب، ويرحم من أناب، فلا يأخذ بالذنب بعد التوبة، ولكنه يرحم من استغفر من الحوبة.

٥٥ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

ومن تمردكم وتنكركم والتوائكم طلبتم من موسى أن يريكم الله - جل في علاه - مباشرة لترونه عيانًا بأبصاركم، والله -عز وجل- أعظم وأجل من أن يُرى في الدنيا، وإنما يُرى في الجنة لأوليائه بقوة خاصة يُمدّهم بها، فكيف طلبتم هذا الأمر الجليل، وهو من المستحيل؟ وكفرتم بالتنزيل، ورفضتم الدليل؟ ولكنكم لما سألتم هذا السؤال عاقبناكم بصاعقة من السماء خلعت قلوبكم، وأحرقت أجسامكم وأنتم تشاهدون مصارع بعضكم، فهَلاَّ كان عندكم حياء من تذكر ذاك البلاء؟ وهَلاَّ استفدتم من تلك المشاهد العظيمة في زجر النفوس الأثيمة؟.

٥٦ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وبعدما أهلكناكم بالصاعقة بعثناكم من جديد، وأعدناكم إلى الحياة لعلكم تراجعون أنفسكم وتوحدون ربكم وتتبعون رسولكم، ولكن ما نفعت فيكم العبر، وما أجدت فيكم العظات؛ لأن النفوس شريرة، والطباع خبيثة، والفِطَر فاسدة، والأخلاق دنسة.

٥٧ ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ومن زيادة النعيم لكم نشرنا السحاب عليكم، يُلَطِّف لكم الجو ويحجب عنكم حرارة الشمس، ويكون مصدرًا للغيث، وتكفلنا بطعامكم من المنِّ الذي هو كالعسل حلاوةً وطلاوة، والسَّلوى وهو لحم طيرٍ لذيذٍ شهيٍ، فالجو لكم قد طاب بتظليل السحاب وتوفير الطعام والشراب، فكلوا من الطيبات واعملوا الصالحات، واشكروا رب الأرض والسموات، ولكن هيهات هيهات لقد قابلوا الإحسان بالإساءة، والجميل بالنكران، فأعرضوا عن الهداية، وركبوا الغواية، فكان ظلمهم على أنفسهم ومغبة ذنوبهم عليهم، فالله لا تضره - سبحانه - معصية العاصي، كما لا تنفعه طاعة الطائع؛ لأنه الغني عما سواه. لا إله إلا الله ولا نعبد سواه، وفي الآية الاكتفاء بالطيبات عن الخبائث، وبالحلال عن الحرام.

٥٨ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

وأمرناكم بدخول فلسطين لطلبكم ذلك، وهيأنا لكم فيها معيشة هنيئة بلا مشقة ولا عناء في تحصيلها، بل رزق وافر من طعام لذيذ مع راحة بال وحسن حال، وأمرناكم بدخول باب القرية خاضعين خاشعين شكرًا لله، مستغفرين لذنوبكم، طالبين العفو من ربكم، ووعدناكم بغفران الخطايا إذا تبتم، وتكفير الذنوب إذا استغفرتم، ومن لم يكن منكم مذنبًا زدناه باستغفاره وصلاحه حسنات، ورفعناه درجات، فالمسيء نكفّر سيئاته، والمحسن نزيد في حسناته، فوعدناكم إذا استقمتم بعيش رغيد، ومقام سعيد، وغفران للخطايا، وزيادة في العطايا. وفي الآية وجوب الاستغفار من الذنوب مع تقوى القلوب.

٥٩ ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

فغيّر الفجرة منكم ما أمرناهم به من الاستغفار، وقلبوا الكلام فسقًا وعنادًا، فقالوا: حِنْطَة مكان حِطَّة، وما ذاك إلا لكثرة تمردهم على ربهم، وتأصل الخبث في نفوسهم، بعدها أنزلنا عليهم عذابًا من السماء نَكَّل بهم جزاء فعلهم الشنيع وقولهم القبيح، فكم من آية مرت بهم وبلاء، وكم من محنة عاشوها ورخاء، لكن المُخَدَّر بسكار المعصية لا يشعر، والمفتون بحب الدنيا لا يحس، فالذنوب تميت القلوب وتنسيها علام الغيوب، فما أذهب الفطنة وعطّل الفهم ومحق البركة مثل المعصية.

٦٠ ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

فلما أمّنا لكم الطعام مما لذَّ وطاب، بقي الشراب، فلما دعانا موسى أن نسقيكم الماء البارد جعلناه بطريق المعجزة لعلكم تشاهدون قدرة الله فتخافوا، وتنظرون فضله فتشكروه، وتبصرون كرمه فتحبوه، فلا شكر على النعم، ولا خوف من النقم، ولا حب على كثرة الأيادي.

أمَا ضرب موسى بعصاه الصخر مثلما ضرب بها البحر، فانفجر الصخر بالماء، وانفلق البحر للنجاة، فاليابس القاسي بقدرتنا لان، وقلوبكم ما لانت، والسائل بأمرنا تجمّد، فهل من معتبر؟ وفجرنا من الصخر لكم اثنتي عشرة عينًا بعدد قبائلكم؛ ليقل الزحام ولا يقع الخصام، فكل قبيلة تعرف مشربها، فها هو الطعام والشراب مهيأ لكم، وكله من فضل الله فهلاّ شكرتموه وعبدتموه، فلله في كل لقمة نعمة، وفي كل قطرة ماء آلاء، وفي كل نسمة هواء عطاء، وقد حذرناكم مغبة العصيان، وعاقبة الكفران من السعي في الأرض بالظلم، وسفك الدم الحرام، والقطيعة وأخذ أموال الناس بالباطل، وشهادة الزور ونحوها، ولكن تركتم المأمور، وارتكبتم المحذور، وخالفتم الرسول، وجانبتم الحق، وأطعتم الهوى.

٦١ ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

وبعدما هيأنا لكم أحسن الطعام من اللحم والحلوى والشراب البارد مللتم ذلك لانعكاس الفطرة وخواء القلوب والتنكر للنعم، ومحبة التبديل والتغيير حتى في الأكل والشرب، اقترحتم على موسى طعامًا آخر وهو أدنى من الأول في الطعم والقيمة من البقل وأنواع الحبوب والخضراوات، فكيف تستبدلون - حتى في الطعام - الأدنى بالأحسن، والرخيص بالغالي، فلا تمييز عندكم ولا فرقان حتى فيما تأكلون؟! ولكننا أعطيناكم طلبكم أيضًا، وأنزلناكم بلدة طيبةً تأكلون من الثمار والحبوب والخضراوات، وجزاءً لعتوّكم والتوائكم وتمردكم جعلنا الهوان عليكم فضربناكم بالخوف في القلوب، والفقر في النفوس، مع خِسَّة الهمم وانحطاط العزيمة؛ لأنكم رضيتم بالدون، وطلبتم الأخس من كل شيء، ورفضتم اختيارنا لكم من العلو والرفعة، وطهارة النفس وسلامة الأخلاق، وصفاء الضمير، وصحة

المنهج، فغضبنا عليكم أشد الغضب؛ لمخالفتكم وفجوركم بعد قيام الحجة، وثبوت الدليل، ووضوح البرهان، فالعالم العاصي مغضوب عليه، والجاهل العاصي ضال، وسبب غضب الله على اليهود كفرهم بالرسالة ورفضهم الإيمان، وقتلهم للأنبياء، وهي جرائم بشعة فظيعة، وخطايا هائلة مرعبة، وهذا الهوان الذي حل بهم والذل الذي لزمهم والغضب الذي وقع عليهم بسبب عصيانهم في ترك المأمور، وعدوانهم بارتكاب المحظور، ويمكن أن يكون العصيان ظلم النفس، والعدوان ظلم الناس.

٦٢ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هذه الآية في أهل الكتاب قبل رسالة محمد ﷺ، ومعناها أن من آمن من هذه الطوائف من اليهود والنصارى والصابئة (هم الذين بقوا على فطرتهم بلا دين معلوم عنهم، وقيل فرقة من النصارى)، وعمل صالحًا فهم مأجورون عند الله لا يخافون مما أمامهم من الأهوال، ولا يحزنون مما خلفهم من آثار الأعمال، وأما بعد بعثة محمد ﷺ فلا يصح إيمان مؤمن حتى يؤمن به ﷺ، وهذه الآية فيها احتراز واستثناء؛ لأنه لما ذم بني إسرائيل أخبر أن فيهم مؤمنين، ثم ذكر النصارى والصابئين ليكون الحكم عامًا والقاعدة مطردة في كل من آمن وعمل صالحًا، وبيّن أن أجرهم عند ربهم، وهي الجنات، ولا يلحقهم خوف من عقاب من العقوبات، ولا ينالهم حزن على فوات ثواب؛ لأنه لا أمن لخائف ولا راحة لمحزون، وفي الآية اقتران الإيمان بالعمل الصالح، وإلا صار مجرد دعوى لا يوصل لفوز، ولا ينجي من هلاك.

٦٣ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

واذكروا يا بني إسرائيل أخذنا عليكم العهد الثقيل بطاعتنا واتباع رسولنا، وأكدنا ذلك برفع جبل الطور فأصبح كالسحابة فوق رؤوسكم حتى تخافوا وترهبوا، وأمرنا بالجد والاجتهاد في أخذ التوراة والصبر على تعاليمها والعمل بأوامرها واجتناب نواهيها، مع تدارس هذا الكتاب وتذكره وتدبره ودوام تلاوته؛ ليبقى حاضرًا معكم؛ لأن الإهمال طريق النسيان؛ ولأن في لزوم قراءته ما يدعو لتقوى الله بما يحب واجتناب ما يكره، وهذا هو المقصود من المدارسة للكتاب لا مجرد التلاوة بلا عمل.

فالقوة في أخذ الكتاب تقتضي حسن التلقي، وصحة العمل، فلا كسل في الأخذ، ولا وهن في التنفيذ.

٦٤ ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

وبعد هذه الآيات والحجج البيّنات أعرضتم عن الهداية واخترتم الغواية، فلولا أن الله تفضّل عليكم بالإمهال والتوبة ولم يعاجلكم بالعقوبة لحل بكم الهلاك، فلا ناصر يدفع، ولا وليًا يشفع، وفضل الله يشمل الإحسان للمحسن، ورحمته تعم التجاوز عن المسيء.

٦٥ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾

ولقد عرفتم قصة سكان قرية إيلات الساحلية الذين خالفوا حرمة يوم السبت، فصادوا فيه فعاقبناهم بتغيير صورهم إلى قرود ذليلة قبيحة حقيرة، فمن بدّل النص والسورة عُوقب بتبديل الشكل والصورة، كما في الحديث: «**أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحوِّل الله صورته صورة حمار**». والجامع بينهم وبين القرود الهوان والذلة وقبح الصورة.

٦٦ ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

فجعلنا هذه العقوبة التي حلّت بهم عظة وعبرة لمن شاهدها، وسمع بها في عصرهم، ولمن نقلت إليهم ممن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة؛ ليرتدع العاصي، ويحذر المتقي، وتقوم الحجة، وتظهر نقمة العظيم بأعدائه، والسعيد من

وعُظ بغيره، ومصائب قومٍ عند قوم فوائد، وذكرت هذه الآيات لهذه الأمة لتأخذ الحيطة والحذر من مخالفة أمر الملك الحق، ولكن لا ينتفع بهذه الآيات إلا المتقي؛ لتمام بصيرته وكمال إيمانه وحسن تدبره.

﴿٦٧﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

واذكروا حين قال لكم موسى إذ قتلتم قتيلاً منكم ثم اختلفتم فيمن قتله، وكادت تقع بينكم فتنة، فأمركم بذبح بقرة وأخذ عضو من أعضائها وضرب المقتول به ليخبر من قتله، لكنكم ما بادرتم لامتثال أمر موسى بل تلكأتم وترددتم وتشددتم في السؤال فشدد الله عليكم في أوصاف البقرة، ولو أنكم بادرتم إلى أيَّة بقرة فذبحتموها لاستقام الحال وحصل الامتثال.

فلما أمرهم موسى بذبح البقرة ظنّوها سخرية منه، فقالوا: نسألك عن القاتل، فتقول: اذبحوا بقرة؟! ومعاذ الله أن يهزل رسول الله في أوامر الله، فكلام الرسل جدٌّ ليس بالهزل، بل حق وصدق وفصل، ولهذا تعوَّذ موسى من الجهل الذي منه الاستهزاء بالناس، والسخرية بعباد الله، والتكلم بكلام لا فائدة فيه، واللعب بأمر الله، والمزاح في شرعه سبحانه.

فمن مزح بالحق فقد جهل، ومن استهزأ بالناس فقد خسر.

﴿٦٨﴾ ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ۖ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

فلما علموا صدق موسى أخذوا يطلبون أوصاف البقرة تعجيزًا وتردّدًا، فقالوا: يا موسى، اسأل ربك يخبرنا ما سنُّها؟! أكبيرة هي أم صغيرة؟ فقال موسى: ربي يقول: إنها وسط ليست بالفارض وهي الكبيرة، ولا بالبكر وهي الصغيرة، بل هي بينهما، وذلك الأقوى والأحسن والأكمل نموًا، فهيا بادروا إلى الأمر واتركوا التشدد والتعنت. [فمن سأل عما سُكت عنه ساءه ما صدر منه].

﴿٦٩﴾ ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

فلما سألوا عن السن وأجيبوا، سألوا عن اللون، فقال لهم موسى: إن ربي يقول: إنها صفراء شديدة الصُّفْرة، وهي أحسن ألوان الدواب التي تبهج العين حسنًا وتسر النفس مشاهدةً.

﴿٧٠﴾ ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ۖ وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

وما زال اللبس عندهم بعد هذا البيان، فقالوا: ادع لنا يا موسى ربك يبين لنا شأن هذه البقرة وإنَّا بعد ذلك لمهتدون بمشيئة الله، ولو لم يقولوا: إن شاء الله ما اهتدوا.

﴿٧١﴾ ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

فقال لهم موسى إنها ليست مذللة للعمل، ولا مسخرة للخدمة، ولا يُحرث عليها، ولا يُسقى عليها، سالمة من العيوب كالعرج والعور والمرض، أو سالمة من العمل، ولونها لون واحد لا لون فيها غير الصفرة، وبعد هذا التشدد منهم شدد الله عليهم، فقالوا لموسى بعد هذه الأوصاف: عرفنا البقرة الموصوفة، فذبحوها بعد عنت ومشقة.

﴿٧٢﴾ ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

وقد قتل أناس منكم نفسًا معصومة، واختلفتم فيمن قتلها والقاتل جاحد والشاهد كاتم، فجعل الله علامة بينت الحق، وهي أن الله أمركم بذبح البقرة، ثم أخذ عضو منها وضرب المقتول به، فأحياه الله وأخبر بمن قتله، فأخرج الله البينة التي أخفاها القاتل وكتمها الشاهد.

﴿٧٣﴾ ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

فلما أمرناكم بضرب المقتول بعضو من أعضاء البقرة أحيينا المقتول بإذن الله ليتحدث بنفسه ويخبر عمن قتله، وتكون لكم آية على قدرة - الله تعالى - في الإحياء لعلكم تراجعون عقولكم؛ لأنكم بعد هذه الآيات والحجة ضللتم في المحجة.

﴿٧٤﴾ ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وبعد هذه الآيات غلظت قلوبكم، ومردت على الكفر، فلم تؤثر فيكم موعظة، ولم تنفعكم نصيحة، ولم يجدِ فيكم هدى من بعد ما أظهرنا لكم البينات والآيات الباهرات، فقلوبكم في قسوتها كالحجارة بل أشد، لأن الحجر ينفجر منه النهر، وقلوبكم لا تنفجر بخير ولا تقوى، ومن الحجر ما يتشقق بالماء، وقلوبكم لا تتشقق للهدى الذي نزل من السماء، ومن الحجر ما يسقط من خشية الله، وقلوبكم لا تتفطر من خوف الله، فيالها من قلوب رانت عليها المعصية فغلظت، وكثر عليها الذنب فقست، ولكن الله ليس بغافل عما فعلتموه من التكذيب والتحريف والتبديل، بل هو عالم بذلك حافظ له وسيجازيكم بأعمالكم.

﴿٧٥﴾ ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

ما كان لكم - أيها المؤمنون - أن تطمعوا في إيمان اليهود، وقد حرفوا كتابهم الذي فيه هدايتهم وشرفهم وبدّلوه، فكيف تريدون أن يُصَدِّقوا بكتابكم، ويتبعوا رسولكم؟ هذا بعيد جدًّا على هذه الأمة البائرة الحائرة، فما دام أنهم سمعوا كلام الله الذي جاء به موسى ثم حرّفوه من بعد ما ثبت عندهم أنه من الله، وعلموا علم اليقين أنه وحي إذًا فلا تطمعوا في إيمانهم بما عندكم وقد كفروا بما عندهم، فلو أرادوا الإيمان لآمنوا بموسى قبل محمد، والتوراة قبل القرآن.

﴿٧٦﴾ ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

هؤلاء اليهود منهم من إذا لقي المؤمنين قالوا: آمنا، بألسنتهم فحسب وقلوبهم كافرة، ولكن إذا رجع بعضهم إلى بعض وانفردوا عن المؤمنين قال بعضهم لبعض: لا تظهروا لهم الإيمان بما عندهم، وتشهدوا أن دينهم حق ودينا باطل، فيجعلوا ذلك حجة علينا عند الله يوم القيامة فيكونوا شهداء بضلالنا ونكون شهداء بإيمانهم، أفلا تعقلون خطورة ما تفعلون. فلا تحدثوهم بما عندنا من الآيات التي تظهر صدق محمد ﷺ فيجعلوها حجة منا علينا عندالله، بل اكتموا ما عندنا ولا تؤمنوا بما عندهم.

﴿٧٧﴾ ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

كيف لا يعلم هؤلاء العصاة العتاة من بني إسرائيل أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم، فيخافونه ويخشونه، فهم يظهرون للمؤمنين غير ما يبطنون خوفًا ومداراة، والله أولى أن يخاف، وأجدر أن يخشى؛ لأنه يعلم السر وأخفى، لكن المراقبة إذا ارتحلت من القلب فسد، والعمل إذا خلا من الصدق كسد.

﴿٧٨﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

ومن أهل الكتاب عوام مقلدون، مبلغ علمهم من التوراة التلاوة فقط، بلا فقه ولا تدبر ولا فهم، فعلماؤهم فاسدون، وعوامهم مقلدون، وهؤلاء العوام ليس عندهم يقين، وإنما هي شكوك وأوهام بلا رسوخ ولا عمق، فلا خير في علم بلا فهم، ولا في قراءة بلا تدبر، ولا في عبادة بلا فقه، وإنما حصل الفساد من الغواية والتقليد.

٧٩ ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

فالخسارة والهلاك على من كتب وحرّف كتاب الله بيده، ثم ادعى كذبًا وزورًا أنه كلام الله ليحصل على شيء من الدنيا الفانية الزائلة، كيف والدنيا بأسرها من أولها إلى آخرها ثمنٌ قليل بخس رخيص تافه، والهلاك عليهم من جهتين، من جهة التحريف للكتاب، ومن جهة أكل أموال الناس بالباطل، فهم حرفوا الكلام، وأكلوا الحرام، فالعلم فاسد، والمطعم خبيث، فقوت الروح مقت، وقوت الجسم سحت.

٨٠ ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وقالت اليهود: إن الله لن يعذبنا في نار جهنم إلا أياما معدودة كذبًا منهم وزورًا، فرد عليهم الله بأن هذه الدعوى لها احتمالان: إما أن لهم عهدًا بينهم وبين الله من الإيمان به ورسوله والعمل بكتابه وهذا ليس موجودًا، وإما أنهم يقولون كلامًا لا حقيقة له، وهذا الواقع والحال، فهم كاذبون فيما قالوا، آثمون فيما فعلوا؛ لأنهم نقضوا العهود، وأخلفوا الوعود، وكفروا بالمعبود، فاستحقوا الخلود في النار ذات الوقود.

٨١ ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

والحق أن من كسب ذنبًا أحاط به، وهو الشرك بالله؛ لأن ما سواه قد يغفره الله، لكن هذا الشرك إذا أتى به صاحبه فقد حبط عمله، وضل سعيه، وحق عليه العذاب، فهذا خالد مخلد في النار، وهذا عام لكل الطوائف، شامل لكل الأمم، ولو كان العبد له خطايا غير الشرك لم تحط به خطيئته، فلا حجة لخارجي مكفّر في الآية ولا لمعتزلي متذبذب بل فيها الرد عليهم.

٨٢ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

ثم ذكر حكمًا عامًا في النجاة، وهو أن من آمن بالله واتبع رسله وعمل صالحًا مع الإخلاص والمتابعة فهو ناجٍ من النار، خالد في جنات النعيم، فبين في هاتين الآيتين أهل الهلاك وأهل النجاة، فالإيمان والصلاح طريق الفلاح.

٨٣ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

قد أخذنا الأيمان الغليظة على بني إسرائيل مع العهود الموثقة على أن يعبدوا الله وحده لا يشركوا به شيئًا، مع بر الوالدين وصلة الرحم والإحسان إلى اليتيم والمسكين، وحسن معاملة الناس، وإقامة الصلاة في وقتها بحدودها، ودفع زكاة المال لمن يستحقها، وهذه أصول العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، وهي متفق عليها بين الديانات السماوية، ولكن مع أخذنا المواثيق الصارمة والأيمان الجازمة عليكم، ومع حسن ما أمرناكم به، وقبح ما نهيناكم عنه أعرضتم وبدلتم وحرّفتم، فتركتم الأوامر، وارتكبتم المناهي ظلمًا وبغيًا، ولكن فئة منكم لم تفعل فعلكم بل آمنت وصدّقت واتبعت، وأما أكثركم فهو معرض مكذب، لم يحسن عبادة الخالق، ولم يحسن معاملة المخلوق، فياخسارة بني إسرائيل ومن شابههم، كم من عهد نقضوه، وواجب تركوه، ومحرم ارتكبوه، وعلم نسوه.

٨٤ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

واذكروا يوم أخذنا عليكم المواثيق الغليظة، والعهود الملزمة ألاَّ يقتلَ بعضكم بعضًا بلا حق، ولا يخرج بعضكم بعضًا من وطنه بلا حق؛ لأن قتل النفس والإخراج من الوطن قرينان، فذاك بقاء النفس وهذا دوام الأنس، فأين هذه العهود التي أقررتم بها وشهدتم على الوفاء بها، وعلمتم أنها حق من عند الله ثم نقضتموها بالقتل والطرد؟.

﴿٨٥﴾ ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

فأنتم الآن في المدينة تقتل كل قبيلة منكم الأخرى، فبنو النضير تقاتل بني قريظة، وكذلك بنو قينقاع، وبعضكم يخرج بعضًا ويُجْلِيه عن بلده ويطرده من داره، وهذا محرم في شرعكم، وأنتم تتعاونون على هذه الأفعال المحرمة، وتتحالفون مع غيركم كالأوس والخزرج من العرب على قتل إخوانكم من اليهود وإخراجهم، فأنتم على إثم في ترك الأمر، وعلى عدوان من فعل المنهي عنه، ثم إذا انتهت الحرب فديتم أسراكم فتخرجونهم ثم تفادونهم، والإخراج محرم، والفداء واجب عليكم، فأنتم كَفَرْتُم ببعض الكتاب من تحريم القتل والإخراج، وآمنتم بالفداء، فلماذا تفرقون شريعة الله؟ فما أعجبكم آمنتم به، وما شق عليكم كفرتم به!! فعقوبة من يفرق الكتاب أن يخزيه الله، وهذا ما وقع لليهود في عهده ﷺ، فإنه نكّل بهم وقتل بعضهم، وأخرج بعضهم جزاء وفاقًا؛ لنقضهم العهد والميثاق، فصاروا بعد هذا في ذُلٍّ وهوان وهلاك وخسران، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فعذاب دائم أليم في نار جهنم، وهذا جزاء من أعرض عن الهُدى ضنك وعار في الدنيا، وعقوبة وعذاب في الآخرة. أما المؤمن فسعادة ونصر وعزة في الدنيا، ونعيم ونجاة وخلود في الآخرة، ثم أخبر - سبحانه - أنه ليس بغافل عن أعمال اليهود وما يفعلونه من دسائس ومكر ومعاصٍ، بل هو مطلع عالم يحصيها لهم ثم يوفيهم إياها.

﴿٨٦﴾ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

هؤلاء الكفرة الفجرة اختاروا عرض الدنيا الزائل على نعيم الآخرة الدائم، فتعاونوا على الإثم والعدوان خوف العار في نظرهم، فلسان حالهم يقول: النار ولا العار، فلما أغضبوا الجبار أوقع بهم العار، وأعد لهم النار، فهم يقدمون الحاضر الرخيص على الغائب النفيس دائمًا، ففي الآخرة لن يخفف الله عليهم عذاب جهنم، وليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب، فلا عمل صالح ينفع، ولا ناصر يدفع، ولا ولي يشفع، فلا يرحمهم الله، ولا يقبل قول من يرحمهم.

﴿٨٧﴾ ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

وأخبر - سبحانه - أنه أنزل على موسى التوراة؛ هدايةً لبني إسرائيل، ثم تابع الرسل عليهم مبشرين ومنذرين من أجل هدايتهم، ومنهم عيسى الذي أنزل الله عليه الإنجيل وأيده بجبريل، لكن اليهود لما قَدَّمُوا الهَوى على الهدى حاربوا أنبياء الله واستكبروا على أمر الله، وجحدوا بآيات الله، فكذبوا بعض الأنبياء، وآذوهم وقتلوا بعض الأنبياء، فهم بين تكذيب وتقتيل، فكان جزاؤهم التنكيل والتعذيب.

﴿٨٨﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

هؤلاء اليهود اعتذروا عن الإيمان بالرسول النبي الأمي فقالوا: قلوبنا مغطّاة بأغشية لا تفهم ما تقول، فسامحنا فلن نستطيع اتباعك، فليس عندنا استعداد لسماع ما بُعثت به؛ لأننا لا نفقه ما تقول، وأخبر - سبحانه - أن هذا عذر كاذب، بل السبب أن الله كتب عليهم اللعنة فأصبحوا مطرودين من الرحمة والخير والهدى، فلما كتب عليهم الشقاوة وحرمهم الهداية لارتكابهم الغواية أصبحوا لا يريدون الرشد الذي بُعث به ﷺ؛ لأن الملعون مغبون، وما استحقوا اللعنة إلا بكفرهم بالله واستهزائهم برسله وكتبه، فالمؤمن فيهم قليل، وغالبهم كافر جاحد.

٨٩ ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

ولما جاء اليهودَ كتابُ القرآن المنزل على محمد ﷺ وهو يصدق ما جاء في التوراة الذي نزل على موسى ويتفق معها، وكان في كتابهم ما يخبر برسالة محمد ﷺ وأوصافه، وكانوا هم قبل رسالته - عليه الصلاة والسلام - إذا حاربوا مشركي العرب استنصروا وافتخروا به وتوعدوا بخروجه، وأنهم سوف يقاتلون معه، لكنهم بعد ما بعث كفروا به، فلعنة الله على أمثالهم من الكافرين.

٩٠ ﴿ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

بئس ما استعاضوا واستبدلوا، فهم اختاروا الكفر على الإيمان، والتكذيب على التصديق، والهلاك على النجاة؛ لأن الحسد والبغي حملهم على المكابرة والتكذيب، فرفضوا متابعة النبي العربي عنادًا وحسدًا؛ لكونه ليس من اليهود مع أنهم كفروا بما أُنزل على موسى، فلا برسولهم صَدَّقوا ولا بمحمد آمنوا، مع العلم أن الاختيار في إرسال الرسل لله وحده يختار من يشاء من عباده من العرب واليهود وغيرهم، فالخلق خلقه والأمر أمره، فكان جزاؤهم غضبًا من الله على تكذيبهم محمد ﷺ على غضب سابق؛ لتكذيبهم موسى، ولهم ولكل كافر عذاب مؤلم موجع في هون وخسران؛ لأنهم أغضبوا الرحمن واتبعوا الشيطان.

٩١ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

وإذا قيل لليهود آمنوا بما أنزل الله على محمد ﷺ، قالوا: نحن لا نؤمن إلا بما نزل علينا نحن اليهود، أما ما أُنْزل على غيرنا فلا سمع ولا طاعة، فردّ عليهم - سبحانه - بأن ما نزل على محمد حق وصِدْقٌ من عند الله الذي أنزل الكتاب، فهو حجة لهم لو آمنوا به على صحة ما في كتابهم من الحق، فكيف يكفرون بما يتفق مع رسالتهم؟!!! فتكذيب القرآن تكذيب للتوراة؛ لأن بعضها يصدق بعضًا، لكنه حمق اليهود وسفههم وبغيهم وحسدهم، ثم إن كنتم صادقين أيها اليهود في أنكم لن تؤمنوا إلا بِرُسُلِكُم فلمَ قتلتموهم؟ فهل قَتَلَةُ الأنبياء يؤمنون بهم؟ فكيف تؤمنون بالنبي العربي الأمي وأنبياؤكم من اليهود قتلتموهم وكذبتموهم؟!!

٩٢ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

ولقد جاءكم موسى بأدلة قاطعة وبراهين ساطعة؛ وبعد ظهور البيان ووضوح البرهان على وحدانية الرحمن عبدتم العجل من دون الله، فمن أظلم منكم؟! ومن رفض الحجة، وعق الدليل، وكابر الحق فهو ظالم، وأنتم عبدتم غير الله مع وجود موسى نبي الله، فمن كفر بالحق وجحد، وكذّب بالآيات وألحد، كيف يتبع النبي محمدًا ﷺ؟!

٩٣ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

واذكروا حين أخذنا منكم المواثيق الغليظة، والعهود القاطعة على الإيمان بنا، وجعلنا جبل الطور فوق رؤوسكم كأنه سحابة ليكون دليلاً على قدرتنا لعلكم تخافون وتؤمنون، وأمرناكم بأخذ الرسالة بحزم، والعمل بجد واجتهاد لا باستهزاء وسخرية وكسل، واسمعوا سماع استجابة وطاعة وقبول، لكن كان جوابكم أسوأ جواب؛ فقلتم سمعنا بالآذان، وكذبنا بالجنان والأركان، فقامت عليكم الحجة بعد وضوح المحجة؛ لأن قلوبكم شُغِفَت بحب عبادة العجل، فمن لا يعبد الله عبد غيره، ومن لا يحبه أحبَّ سواه، فسحقًا لكم كفرتم بعبادة العزيز الغفور، وعبدتم الثور، فإذا

كان هذا هو الإيمان الذي تقصدونه فقُبْحًا له من إيمان، وخسارة لكم به، فهل المؤمن الصادق يفعل هذه الأفاعيل من التكذيب والدجل والتزوير والجهل وعبادة العجل؟!

فلو كان إيمانكم حقًا، ودينكم صدقًا كنتم اتبعتم المرسلين، وعبدتم رب العالمين؛ فدل على أنكم كفرة فجرة، قتلة جهلة.

٩٤ ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

قل لهؤلاء اليهود إن كنتم تعتقدون أن الجنة لكم وحدكم كما زعمتم أنه لن يدخلها إلا من كان هودًا، فهيَّا اطلبوا الموت حتى تدخلوا جنتكم الموعودة إن كنتم صادقين أن الجنة لكم؛ لأن من وُعِدَ محبوبًا مرغوبًا جَدَّ في طلبه.

٩٥ ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وهؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت؛ لخوفهم من سوء مصيرهم، فهم لو كانوا صادقين أن الجنة لهم لتمنوا الموت، ولكنهم كاذبون، فأعمالهم القبيحة تمنعهم من طلب الموت، والله - سبحانه - مطلع على أفعال الظالمين ليوفيهم إياها.

٩٦ ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

لكنهم كاذبون، فهم أشد الناس حبًا وتعلقًا بالبقاء في الحياة الدنيا حتى إنهم أكثر طمعًا فيها من المشركين عبدة الأصنام، يريد أحدهم أن يعيش في هذه الدنيا ألف سنة من شدة حبه للبقاء، فهو يتعلق بالمحال لسوء الحال، وقبح الأعمال، ولو على فرض أنه عُمِّرَ ألف سنة فسوف يعود إلى ربه فيعاقبه على سوء صنيعه وقبيح فعله؛ لأن الله مطلع على أعمالهم، عالم بها، محصيها عليهم.

٩٧ ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

واليهود يقولون إن عدوّنا من الملائكة جبريل؛ لأنه ينزل بالدمار والخسف، فقيل لهم: بل جبريل نزل بالحق على محمد الذي يصدِّق الحق الذي نُزِّل على موسى، وهو لا ينزل إلا بأمر الله، فنزوله سبب لكل خير من إرشاد العباد وهداية البشر والتبشير لمن آمن برحمة الله ورضوانه وجنته، فأيُّ خطأٍ لجبريل حتى عادوه؟! لكنه البغي والعدوان منكم.

٩٨ ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

وهؤلاء لما عَادَوا جبريل وما نزل به من الحق من عند الله عَادَوا الله، وعَادَوا ملائكته ورسله، فاستحقوا عَدَاء الله، ومن كان الله عَدُوَّه محقه وأخزاه وأذلّه، فالله عدو لكل كافر، يشتت أمره ويقصم ظهره.

٩٩ ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

ولقد أنزلنا إليك - يا محمد - آيات القرآن البيِّنة الواضحة التي تحمل الرشد والهدى، وتنهى عن الغي والردى، وما يكذب بها بعد هذا البيان إلا من خرج عن طاعة الله واستوجب غضب الله، وتمرد على أمره.

١٠٠ ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

فما لهؤلاء اليهود كلما عقدوا عقدًا، أو عاهدوا عهدًا مع الله ومع خلقه قام فريق منهم بنقض هذا العقد، ونكث هذا العهد، ففريق منهم يغدرون، وأكثرهم لا يؤمنون، فمن لا يؤمن بالمعبود لا يحترم العهود، ولو كانوا صادقين في إيمانهم لما نقضوا عهودهم، فمع الخالق كفروا، ومع الخلق غدروا.

﴿١٠١﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

ولما جاء اليهودَ هذا الرسولُ النبيُّ الأميّ الكريمُ بهذا الكتاب العظيم الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو مصدق لما نُزِّل على موسى من التوراة طرح فريق منهم كتابهم وأعرضوا عنه؛ لأنهم لما كَذَّبوا ما نُزِّل على محمد فقد كذبوا ما عندهم؛ لأن بعضها يصدق بعضًا، فلشدة إعراضهم كأنهم رموا الكتاب خلف ظهورهم استخفافًا به وإهانة له وعدم احتفاء واحتفال به، وفعلهم هذا فعل من لا يعلم أنه من عند الله، بل هو فعل جاهل سفيه.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾

فلما طرحوا كتاب الله وأعرضوا عنه ابتلاهم الله بما اعتادوه من الباطل كالسحر ونحوه، فتركوا الحق المبين، وذهبوا يتبعون الإفك المهين، فصاروا يتبعون ما نسبته الشياطين إلى سليمان من سحر وكهانة، وهو - عليه السلام - بريء من ذلك، بل هو نبي معصوم، ورسول كريم لم يكفر بربه بسحر أو غيره، وإنما الذين كفروا هم الشياطين.

فاليهود اتبعوا سحر الشياطين وتركوا اتباع المرسلين، واتبعوا أيضًا السحر الذي يعلِّمه هاروت وماروت في أرض بابل في العراق مع العلم أنهما ينصحان من علَّماه بخطورة السحر ويحذرانه من الاغترار به، فالشياطين يعلِّمون السحر للإضلال، والملكان يعلمانه بعد النصح والتحذير والإخبار أنه من أقبح الأعمال، فاليهود يتعلمون السحر، ويهجرون الذكر، ويتعلمون من السحر أسوأه وأقبحه، وهو التفريق بين الرجل وامرأته، ويسمى الصرف؛ لأن العلاقة بين الزوجين علاقة مودة ورحمة، ومع هذه العلاقة القوية فإن السحر يؤثر - بإذن الله - فيها وله حقيقة، فلقوَّة تأثيره يفرق بين الزوجين.

وقد علم اليهود أن من رغب في السحر واشتراه وباع إيمانه بالله أنه ليس له عند الله نصيب من الرحمة والثواب، بل له أعظم النكال وأشد العذاب، ويا خسارة وحقارة ما استعاضوا به من تركهم الإيمان واتباع الرسل وتعلقهم بالسحر والدجل، لكن ليس عندهم علم نافع يحملهم على تمييز الصالح من الطالح والنافع من الضار.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾

ولو أن اليهود آمنوا بالله واتبعوا رسله واتقوا عذابه؛ لكان ثواب الله ونعيمه خيرًا لهم من هذا العرض الزائل الذي يحصل لهم من السحر؛ لأن الإيمان يحث على فعل الطاعات، والتقوى تنهى صاحبها عن المخالفات، ولكن علمهم علم فاسد ما دلهم على الرشد ولا ردهم عن الغي؛ لأن العلم النافع إذا تمكن من القلب أورث الخشية، وأثمر الإنابة، وأنتج الاستجابة، لكن علمهم علم لسان وجاه لا قلب ونجاة.

﴿١٠٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

كان الصحابة يقولون للرسول ﷺ: راعنا أي راعِ أحوالنا، فأخذها اليهود وقصدوا بها راعنا من الرعونة والحمق، فنهى الله المؤمنين عن استعمال هذه الكلمة ليقطع الطريق على اليهود، وليرفع اللبس، ولا يكون هناك مدخل لليهود، فعليهم أن يقولوا: انظرنا لأنها أسلم وأحسن وأبعد عن سوء الاستعمال، فعلى العبد أن يبتعد عن الشبهات والألفاظ المحتملات، وعليه بالجلي الواضح الحسن الذي لا مدخل فيه من أي ظن أو احتمال يحصل به التدليس والتلبيس، على حديث: «**دع ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُكَ**».

وعليكم بسماع كل نافع مفيد من الكتاب والسنة وعموم العلم النافع، السماع المقرون بالقبول والاستجابة.

أما الكافرون فلهم عند الله عذابٌ أليم موجع لسوء أفعالهم وقبح أقوالهم وشناعة أحوالهم.

﴿١٠٥﴾ ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

ما يريد اليهود ولا مشركو العرب أن يُنَزِّل الله على رسوله وحيًا يهدي به المؤمنين؛ حسدًا وبغيًا وبغضًا منهم لأهل الإسلام؛ لأن الوحي سبب لكل خير. ومصدر لكل سعادة، فهو أجلُّ نعمة، وأعظم كرامة، وأكبر عطية، ولكن الله اختص من آمن بمحمد ﷺ بهذا الفضل واختارهم لهذا الخير، وحرم منه غيرهم، وأبعد عنه سواهم، ففضله عظيم لا يحد، وخيره كثير لا يُعد، ونواله غزير لا يرد، فله الحمد، فالوحي رحمة وفضل، رحمة يمنع من اتبعه العذاب، وفضل يثمر لمن اهتدى به الثواب.

﴿١٠٦﴾ ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ما ننقل آية من حكم إلى حكم فنرفع حكم الأولى ونبقي حكم الثانية أو نمحها من القلوب إلا نزَّلنا أفضل منها وأنفع عاجلاً أم آجلاً، أو نزلنا مثلها في النفع والفائدة؛ لأن الذي ينزلها قادر على تغيير الأحكام وفْقَ أحوال الأنام، وتغير الأيام؛ لعظمِ حكمته وسعة علمه ونفاذ قدرته.

﴿١٠٧﴾ ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

فما دام أن الله قدير يفعل ما يشاء، ذو ملك عظيم يتصرف بما يشاء، فله كمال القدرة والتصرف في آياته الشرعية، مثلما له كمال التصرف في آياته الكونية، فإذا تصرف في الخلق تصرف في الأمر ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾. فهو الولي الذي يجلب لعباده ما ينفعهم، والنصير الذي يدفع عن عباده ما يضرهم، ومن كمال ولايته بعباده اختيار الأحسن والأجمل من الآيات على قَدْر الأوقات، ونسخها بالأرفع، أو الإتيان بما ينفع، ومن كمال نصرته دفع ما يشق عليهم من التشريع وإعفاؤهم من التكليف بما لا يُطاق، فهل من ولي يتولاكم سواه؟ وهل من ناصر ينصركم غيره؟

﴿١٠٨﴾ ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

هل ترغبون أن تسألوا -أيها المؤمنون- رسولكم محمدًا ﷺ سؤال تعنت واعتراض كما سأل بنو إسرائيل موسى حتى وصل بهم الحال إلى الكفر والتكذيب؟! والذي يختار الكفر على الإيمان ويستعيض الضلال بالهدى فقد أخطأ الصراط المستقيم والطريق القويم. أما السائل للاستفادة فهو مأجور؛ لأنه طالب علم يريد الفهم ورفع الوهم.

﴿١٠٩﴾ ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يتمنى كثير من أهل الكتاب حسدًا وبغيًا لو ترتدون عن الإسلام إلى الكفر؛ لما تحقق لديهم من أنكم على حق وصواب؛ ولأن دينكم سبب عزِّكم ومجدكم ونصركم وسعادتكم، فاثبتوا على دينكم، فلا تقابلوا هذه الإساءة بإساءة، ولكن بالإحسان من الحلم والصبر والكظم وعدم الأذى؛ لتُؤَلفوا القلوب إلى إسلامكم، وتحببوا الناس في دينكم حتى يأذن الله بمسلك آخر حيالهم كقتالهم مثلاً، والله ذو قدرة بالغة لا يعجزه شيء فعليه توكلوا وبه ثقوا.

﴿١١٠﴾ ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وعليكم بإقامة الصلاة؛ لأنَّها سبب كل نصر، وطريق كل فوز متى ما أحسنتم إقامتها، وعليكم بدفع الزكاة لمستحقيها؛ لأنها طهارة للقلوب، وكفارة للذنوب، ومرضاة لعلام الغيوب، فحق البدن الصلاة، وحق المال الزكاة، وإن تصدقتم غير الزكاة نفلاً فكله محفوظ عند الله، مكتوب عنده، تجدونه في صحائف الأعمال، وتحصلون على ثوابه عند ذي

الجلال، وهو - سبحانه - بصير بالنيات، مطلع على السرائر، يعلم المخلص من المرائي، والصادق من الكاذب، فراقبوه واخشوه وحده.

﴿١١١﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

اليهود يقولون الجنة لهم، والنصارى يقولون الجنة لهم، وهذه مجرد دعوى لا دليل عليها، والمدعي بالباطل دَعِيٌّ، والمتكلم بلا برهان صاحب بهتان، فأين الدليل على ما ادعوه والحجة على ما قالوه من كتاب ناطق أو رسول صادق؛ بل دعواهم كذب فاضح وباطل واضح.

﴿١١٢﴾ ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

كلا ليس الأمر كما زعموا وليس القول كما ادَّعوا، بل الصحيح أن من أخلص عبادة ربه ووحّده صادقًا، وعبده منيبًا، وهو مع إيمانه وإخلاصه محسن في عبادة ربه، محسن إلى عباده بحيث يعبده بما شرع لا بالبدع، فهذا له النعيم الدائم، والمكان الآمن والفوز العظيم في الجنة، ولا خوف عليه مما ينتظره في مستقبل أيامه؛ لأنه مؤمن، ولا حزن على ما قدم؛ لأنه محسن، والسعيد من أمِنَ العاجل والآجل.

﴿١١٣﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

اليهود كفّروا النصارى، والنصارى كفّروا اليهود، وكل منهم يرى ضلال الآخر مع أن كلاً منهم عنده كتاب يبين لهم الحق من الباطل، ومن يستحق الكفر من غيره، لكنهم لم يهتدوا بهذا الكتاب، وإنما مجرد تلاوة بلا فهم ولا عمل، وقولهم هذا يشابه قول الجهلة من الأمم السابقة والفرق المنحرفة، والطوائف الهالكة التي يضلل بعضها بعضًا، ويكفّر بعضها بعضًا، وقد وقع هذا في هذه الأمة، وهو مما أخبر به المعصوم ﷺ، والله وحده - سبحانه - هو الذي يحكم بينهم يوم القيامة في هذا الخلاف فيعلم المؤمن من الكافر.

﴿١١٤﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

لا أحد أظلم من الذي يمنع العباد من ذكر الله في بيوت الله بإقامة الصلاة فيها وتلاوة القرآن والتسبيح ومدارسة العلم النافع ونحوها من القربات، ولا أشد ظلمًا من الذي يجتهد في هدم المساجد والاعتراض على بنائها، وأيضًا تعطيلها من الطاعات والصلوات والقربات والعلوم النافعات، فعقوبات هؤلاء المخربين ألا يدخلوا هذه المساجد إلا ذليلين حقيرين خائفين جزاء وفاقًا؛ لتخويفهم المؤمنين، وهو ما حدث للمشركين في دخولهم الحرم على هيئة الأسر والذل، وكذلك المرتدين في عهد أبي بكر الصديق، فإنه أدخلهم المسجد صاغرين خاسئين.

هذا في الدنيا، وفي الآخرة لهم عذاب فظيع لا يُستَطاع، مؤلم لا يُطاق، وكما أنه لا أظلم ممن سعى في خراب المساجد، فلا أعظم أجرًا ممن بناها وعمّرها بالطاعة.

﴿١١٥﴾ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

والله - وحده - هو الذي يملك المشرق حيث تشرق الشمس والقمر والنجوم والكواكب، ويملك المغرب حيث تغرب هذه الأفلاك، ومن يملك المشرق والمغرب يملك ما بينهما، فهو - سبحانه - المالك لكل شيء، فحيث ما تتجهون فهناك قبله الله فهذه الوجهة بأمره - سبحانه - وإليه الاتجاه.

والله سبحانه واسع في هباته، واسع في صفاته، ومن سعته أنه وسع عليكم في مأموراته ومنهياته، فلم يكلفكم العسر، بل قبل منكم اليسر، وهو عليم بالسرائر، مطلع على ما في الضمير، فمن علمه أن شرع لكم شريعة سمحة سهلة تناسبكم.

﴿١١٦﴾ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾

وقال أعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين إن الله اتخذ ولدًا؛ تنزّه عن ذلك وتقدّس عن هذا القول الباطل الآثم، فإنه - سبحانه - قاهر من في السموات والأرض، وهم عبيده مسخرون له، في حكمه وتحت سلطانه، [ولو اتخذ ولدًا لكان هذا الولد من جنس الوالد في الألوهية وخرج عن صفات المخلوق، وهذه لا تكون]، ثم إن من يملك من في السموات والأرض لا يحتاج إلى ولد؛ لأنه غني عن كل أحد، فهو أحد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، ومن في السموات والأرض كلهم تحت تصرفه وحكمه وتدبيره، منهم القانت قهرًا، ومنهم القانت طاعةً وبرًا.

﴿١١٧﴾ ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

وهو - سبحانه - مبدع السموات والأرض ومُنْشئهما على غير مثال سابق ولا شكل متقدم، هذا في الخلق، أما في الأمر، فإنه إذا أراد أن يقضي أمرًا فإنما هو في كلمة (كن) فلا يعجزه أمر، ولا يتعاظمه شيء، ولا يصعب عليه قضاء، فالخلق أنشأه، والأمر قضاه، لا إله إلا إياه، ولا نعبد سواه.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

وقال الجهلة من أهل الكتاب والمشركين: لماذا لا يكلمنا الله كما يكلم الرسل، أو ينزل علينا آية مما اقترحنا مثل: أن نراه جهرة، أو ينزل علينا كتابًا من السماء، أو ينزل علينا ملكًا أو يُلقى إليه كنز، أو تكون له جنة، أو يفجر لنا من الأرض ينبوعًا ونحوها من الآيات، وهذا القول قال به المشركون ومن قبلهم اليهود والنصارى، فقلوبهم في الزيغ متشابهة، وفي الكفر متقاربة؛ لأن القلوب محل الإيمان والكفر والصلاح والفساد، وطلبهم، هذه الآيات للتعجيز والتعنت، وهو طلب المحال لا للفهم والاستدلال، وإلا لو أرادوا البيان والإيمان فتلك آياتنا الشرعية ظاهرةٌ للعيان باهرةٌ بالبرهان، لكن لا يَعِيها إلا من عظم إيمانه، ورسخت معرفته وكمل صدقه.

﴿١١٩﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾

ومن أعظم الآيات وأجل العلامات إرسال محمد النبي الأمي العربي ﷺ، فإرساله آية باهرة وعلامة ظاهرة؛ لأنه أتى بمعجزات تبهر العقول سواء أكانت في نفسه أم كتابه أم سيرته أم في كل شؤون حياته، ثم إنه بُعث بالحق الذي ثبت لكل عاقل مؤمن صدقه القائم على الدليل القاطع، ثم إنه بَشَّر بالنصر والجنة لمن أطاعه فحصل هذا، وأنذر بالخزي والذل والنار لمن عصاه فتحقق ذلك، والرسول ﷺ إذا بَيَّنَ المحجة وأظهر الحجة للناس فليس مسؤولاً عن ضلال من ضل، بل هذا الضال المعرض يتحمّل جرمه وحده، ويأخذ عقوبته في نار جهنم؛ لأنه لا عذر له، فقد وَضُحَ له الطريق وقامت عليه البيّنة. فالداعية عليه البلاغ، والله عليه الحساب، فإما ثواب أو عقاب.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تترك دينك وتعتنق دينهم، فهم دعاة لدينهم المحرّف الباطل، فأَخْبِرْهم أن معك الهدى ومعهم الهوى، فهدى الله الذي أرسلت به هو الدين الصحيح الحق الذي لا يماثله دين، واحذر أن تتّبع الهوى والزيغ الذي يدعون إليه بعد ما جاءك العلم النافع المبارك من عند ربك، فأنت على الحق وهم على الباطل، ولو اتبعت دينهم وتركت دينك لن ينفعك ولي، ولن يدفع عنك الضر ناصر من دون الله؛ لأنه لا يجلب النفع ويدفع الضر إلا الله وحده، وإذا كان هذا التحذير للرسول ﷺ فكيف بأتباعه، وفي الآية تحريم موالاة اليهود والنصارى واتباع شيء من دينهم وحبهم والتشبه بهم، وبقاء عدائهم للمسلم حتى يترك دينه ويدخل في دينهم.

﴿١٢١﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

الذين أنزلنا عليهم الكتاب فاتبعوه حق الاتباع، واهتدوا بهداه، وأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، أولئك هم الصادقون في الإيمان به وحمله، لا من فرّق بين كتب الله ورسله وقال: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فمن هذا فعله من التكذيب والعناد فهو الخارج عن طاعتنا، المتمرد على شرعنا، الناكث لعهدنا، فجزاؤه الخسران والهلاك والعذاب الدائم.

﴿١٢٢﴾ ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

يا بني إسرائيل (وهو يعقوب عليه السلام) تذكروا نعمي عليكم علّكم تراجعون أنفسكم وتشكرون ربكم؛ لأن ذكر النعم يوجب حمد المنعم، والتفكر في النعماء يقتضي الحياء من رب الأرض والسماء، فالله المنعم وحده لا سواه، وتذكروا يا أبناء يعقوب أنني فضلتكم على عالمي زمانكم بالرسل والشريعة، فهل جزاء هذا التفضيل وشكر هذا الاختيار التنكر والتكذيب؟!

﴿١٢٣﴾ ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾

وخافوا يوم القيامة بعمل الطاعات واجتناب المنكرات، فذاك اليوم لا تنفع نفسٌ نفسًا، ولا يؤخذ منها فداء تفتدي به من العذاب، ولا يشفع لها شافع يجلب لها النفع، ويدخلها الجنة إذا كفرت، وليس لها ناصر يدفع عنها عذاب جنهم، ومن تذكر القيامة وأهوالها خاف علام الغيوب وارتدع عن الذنوب.

﴿١٢٤﴾ ﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لقد امتحن الله إبراهيم الخليل بأوامر ونواهٍ وفرائض وحدودٍ، فقام بها على التمام أحسن قيام، وأداها أحسن أداء، فاستحق الإمامة في الدين بالصبر واليقين، فصار إمامًا للعالمين، فأهل الكتاب كلهم يدعّون النسبة إليه، والانتماء إلى دينه.

فهو الإمام بحق وصدق، سيرته تُتلى، ومناقبه تُروى، والثناء عليه جليل، والمدح فيه جميل، فهو أمة في الهدى والرشاد، وأسوة للعباد، وقدوة لأهل العلم والجهاد، عندها سأل إبراهيم ربه أن يجعل من ذريته إمامًا ليبقى الأجر الجزيل، والثناء الجميل، فأخبره سبحانه أنه لن يُعطيَ الإمامةَ إلا عالمًا عاملاً، أما الظالم وهو الغاوي في العلم، والضال في العمل فلن ينال الإمامة في الدين، وفي الآية أنه لابد قبل التمكين من الابتلاء، وأن الإمامة عملٌ بالشرع ظاهرًا وباطنًا، وأن من فسد علمه وساء عمله لن ينال الإمامة أبدًا.

﴿١٢٥﴾ ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗاۖ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

وكما جعلنا إبراهيم إمامًا يقتدي به الناس جعلنا البيت الحرام قبلة يستقبلها الناس ويتوجهون إليها؛ قاصدين المصالح الدينية والدنيويَّة، وأمَّنَّا الناس فيه، فمن دخله كان آمنًا، حتى إن من الأمن تحريم الصيد فيه وقطع الشجر، ثم أمر الله عباده أن يتخذوا من المقام الذي صلى فيه إبراهيم مصلًّى، وهو الذي فعله ﷺ لما صلى فيه بعد طوافه ركعتين، وأمر الله إبراهيم وإسماعيل بتطهير البيت من الأوثان والأصنام، والمعاصي والآثام، وكل شرك ورجس، وكل قذر نجس؛ ليكون البيت مهيئًا لطواف الطائفين، واعتكاف العاكفين، وعبادة الراكعين الساجدين، ونسب البيت إليه سبحانه؛ للتشريف، وتعريف الناس به وبيان حرمته وعظيم مكانته ولزوم تطهيره.

﴿١٢٦﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

دعا إبراهيم ربَّه أن يؤمِّن البلد الحرام ويؤمن لأهله الغذاء؛ لأنه لا عيش لخائف ولا راحة لجائع، ولهذا أطعم الله أهله من جوع وآمنهم من خوف، وقيد إبراهيم الدعاء فاختص به المؤمنين؛ لأن الله منعه من الإطلاق في الدعاء بالإمامة، فأخرج الظالم، ولكن الله بيّن له في الرزق أنه على وجه الإطلاق للمؤمن والكافر، فللمؤمن عون على عبادة رب العالمين، وللكافر متاع إلى حين، وأما الإمامة فهي منزلة ربانية لا تنال إلا لمن قام بالشريعة حق القيام.

فإذا أعطى الله الكافر من الدنيا، ومتّعه كما يمتّع البهيمة ألجأه الله إلى عذاب أليم في جهنم، ويا له من مقام بائس وعاقبة مخزية.

﴿١٢٧﴾ ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

واذكر فضل الله على إبراهيم وإسماعيل لمَّا شرفهما ببناء البيت، ورفعِ أركانه على أساس قوي، ومع هذا العمل الصالح كانا بين خوف من الرد ورجاء للقبول، فسألا الله أن يتقبل هذا العمل، إنه السميع للأقوال، العليم بالأعمال والأحوال، الذي لا تخفى عليه النية، فيعلم المخلص من المرائي والصادق من الكاذب.

﴿١٢٨﴾ ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

ثم سألا الله البقاء والدوام على دين الإسلام؛ لأنه أجل النعم وأعظم الكرامات، وأثمن العطايا، وهو الانقياد والخضوع ظاهرًا وباطنًا لله تعالى.

وسألا الله صلاح الذرية؛ لبقاء العقب الصالح، والدعاء النافع، والذكر الحسن، وطلبا بيان مناسك الحج ومعالم الدين والعبادة على وجه المشاهدة؛ ليكون أنفع في التعليم، وأثبت في القلب، وبعد عملهما الصالح سألا الله التوبة؛ لأن العبد مهما بلغ في الصلاح فهو عرضة للذنب والتقصير والغفلة والخطأ، والله أهلٌ أن يتوب على عباده؛ لأنه يتوب على العاصي بمحو ذنوبه، ويرحمه بترك عقابه.

﴿١٢٩﴾ ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

ثم سألا الله أن يرسل في ذريتهما رسولاً من أنفسهم، فاستجاب الله لهما، فبعث سيد ولد آدم وهو محمد ﷺ أعظم نعمة لله على البشرية، وأفضل هبة من الله للإنسانية، فهو دعوة إبراهيم كما قال عليه الصلاة والسلام، وأتى معه بكتاب هو خير الكتب، كما أنه هو خير الرسل، يعلّم الأميين ويهدي الضالين، ويقيم الحق بين العالمين.

ورسولاً منهم ليتم الاقتداء والائتساء به؛ لكونه بشرًا مثلهم، وهو يعلمهم هذا الكتاب العظيم ليأخذوه عنه تلقيًا وتلقينًا وحفظًا وتعليمًا، ويطهرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق النبيلة، وينهاهم عن كل إثم وقبيح، فهو - سبحانه - عزيز حكيم، عز فحكم، واطلع فعلم، وقدر فحلم، فمع أنه عزيز لا يغالبه أحد، ولا يمتنع عليه أحد، لكنه حكيم يدبر الأمور بحكمة، ويقضي الأشياء في سداد، وينفذ الأحكام في سداد، فعزة بلا حكمة تهور وطيش، وحكمة بلا عز ضعف.

﴿١٣٠﴾ ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

لا يختار أحد ملة غير ملة إبراهيم الوسط الراشدة السمحة غير سفيه جاهل، يسعى في الإضرار بنفسه؛ لأنه لا يعرف مصلحتها، ولذلك اختار غير هذه الملة، ولقد اخترنا إبراهيم، وهديناه الصراط المستقيم، ورفعنا مقامه بمنصب الإمامة، فأحسن الملل ملته، وأفضل الأديان دينه، وهو في الآخرة من أئمة من أنعم الله عليهم، فطوبى لإبراهيم، وقرة عين وسلام على إبراهيم في العالمين.

﴿١٣١﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

لأنه لما أمره الله بالانقياد له والعبودية والطاعة استجاب قولاً وفعلاً وحالاً للإله الذي يستحق الألوهية، الذي رباه وربى العالمين بنعمه، فحقه أن يُطاع فلا يُعصى، ويذكر فلا يُنسى.

﴿١٣٢﴾ ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

وهذه الملة وصى بها إبراهيم بنيه وذريته من بعده ليلزموها، وأنتم - أيها اليهود - وصى أبوكم يعقوب أبناءه من بعده بملة إبراهيم، فلماذا تركتم هذه الوصية؟ فإن هذه الملة اختارها الله ورضيها لأنبيائه ورسله، فتمسكوا بها حتى الموت، فإن الإسلام دين الله المرتضى وملته المختارة، وهو دين الرسل جميعًا.

وفي الآية مشروعية وصية الوالد لأبنائه، وأن الدين أهم المهمات، وحرص المسلم على ذريته ونصيحة العالم لأتباعه.

﴿١٣٣﴾ ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

اليهود غيروا ملة إبراهيم ويعقوب؛ ولهذا أنكر الله عليهم، وأخبر أن نبيهم يعقوب لما حضره الموت جمع أبناءه فأوصاهم بالتوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ونهاهم عن الشرك، فأقروا بإله واحد مع الاستسلام له، فجمع بين صحة العقيدة وصلاح العبادة.

وفي الآية سؤال العالم لطلابه وتقرير العلم لهم ومدارسته لهم ما يعرفون، والبدء بأبرز المسائل، واستحضار التوحيد عند سكرات الموت.

﴿١٣٤﴾ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

إبراهيم ويعقوب ومن معهم من الصالحين أمة قضت وانتهت بصلاحها وفلاحها، لا ينفعكم - أيها اليهود - التعلق بهم بلا عمل ولا اتباع، فمجرد النسبة لا توجب النجاة، فعملهم النافع لهم وحدهم، وعملكم السيئ القبيح عليكم وحدكم، لا تزر وازرة وزر أخرى، فالإنسان إنما يحاسب هو، فحسنات غيره لا تُهدى إليه، وسيئات سواه لا تناله، كما أنه لا يسأل عن غيره، ولا يظلم بسوء ما عمله، ولا يهضم بحرمانه من خير فعله.

﴿١٣٥﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قال اليهود للمسلمين: كونوا يهودًا؛ لأن الهدى معنا. وقال النصارى للمسلمين: كونوا نصارى؛ لأن الهدى عندنا، وهذا كذب قبيح، وكلام غير صحيح، وأرشدنا الله إلى أن نردَ عليهم فنقول بل: نتبعُ ملة إبراهيم الخليل، وهي دين الإسلام الحنيفية السمحة والشريعة الوسط، فإبراهيم كان مقبلاً على التوحيد معرضًا عن الشرك، أما اليهود فقالوا: عزير ابن الله، وأما النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، فأين التوحيد والهدى لديهم؟!

وفي الآية حرص اليهود والنصارى على الدعوة إلى دينهم الباطل؛ فالمسلم أولى بالدعوة إلى دينه الحق.

﴿١٣٦﴾ ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

قولوا - أيها المسلمون - آمنا بالله مقرين معترفين بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، معلنين هذا الإقرار ناطقين به، معتقدين بالقلوب، عاملين بمقتضاه بالجوارح، ونؤمن بما في كتابنا وسنة رسولنا ﷺ وما نزل على أنبياء الله بمن فيهم صاحب الملة الإمام الأسوة إبراهيم، وما نزل على النبيين بعده من كتب، نحن نؤمن بجميع الأنبياء فلا نفرِّق بينهم فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسله وما نزل عليهم من ربهم كصحف إبراهيم، وزبور داود، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، ونحن على ذلك طائعون منقادون، نعلن هذا المبدأ مجتمعين عليه صادعين به، وإيماننا على وجه الإجمال لما جاء مجملاً، وعلى وجه التفصيل لما جاء مفصلاً.

وفي الآية إعلان المبدأ والاجتماع عليه، وتصديق كل الرسل والكتب من عند الله، وأن عطية الأنبياء أجلّ عطية؛ لأنها من ربهم، وهي الوحي، وأن من ربوبيته سبحانه هداية الخلق، وكفر من جحد نبوة نبي، وأن الإسلام دين الجميع.

﴿١٣٧﴾ ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

فإن آمن أهل الكتاب بجميع الرسل بمن فيهم محمد ﷺ، وجميع الكتب بما فيها القرآن، ووافقوكم في هذا الإيمان فقد أحسنوا وأصابوا، وإن أعرضوا عن هذا الهدى وجانبوا هذا الطريق فهم أهل تفرق وخلاف وفتنة، لا يريدون الهدى والاجتماع على الخير، فلا تخف منهم، ولا تضق بمكرهم؛ فالله وحده يكفيك أذاهم ويرد كيدهم، وينصرك عليهم؛ لأنه سميع بكل قول مع اختلاف اللهجات وتعدد اللغات، عليم بما بطن وظهر، وأعلن واستتر، وما خفي وما جهر، فمن هذا وصفه فكفى به وكيلاً ونصيرًا.

﴿١٣٨﴾ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾

فهذا دين الله وهذا صراطه، فالزموه واتصفوا به حتى يكون لكم صفة دائمة ثابتة كالصبغة في الثوب، وهل هناك أحسن من هُدَى الله؟ أم هل هناك أقوم من دينه؟ فمن اتصف بهدى الله صدق وبر ووصل وعلم وعلَّم وجاهد وصبر وتواضع وأحسن في كل شأن من شؤون حياته، ومن ترك هذا الهدى ذلّ وزلّ وضلَّ وأصابه الخذلان ووقع في الخسران، ونحن طائعون لربنا منقادون لأمره، مخلصون له الدين، مقتدون برسوله الكريم، وهذه هي العبادة الصحيحة التي تجعل الإنسان عبدًا لربه ظاهرًا وباطنًا.

﴿١٣٩﴾ ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾

قل - أيها الرسول وأيها المسلم لأهل الكتاب-: أتجادلوننا في ربنا -جل في علاه- وتزعمون أنكم أولى به منا، وأنه ربكم وحدكم وهو الذي خلقنا وخلقكم ورزقنا ورزقكم، فأي تفريق هذا والله رب الجميع؟ ثم إن صلاحنا لنا وضلالنا علينا، وأنتم حسناتكم لكم وسيئاتكم عليكم، ونحن نخلص عبادة ربنا لا كما فعل أهل الكتاب من الإشراك مع الله غيره، فإخلاص العبادة هو أصل الأصول ورأس الأمر، فنحن نتفق مع أهل الكتاب في الربوبية وهي أن خالقنا واحد، ونختلف معهم في الألوهية فنحن موحدون مخلصون وهم مكذبون مفرّقون.

﴿١٤٠﴾ ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

لماذا تدَّعون كذبًا وزورًا - يا أهل الكتاب - فتزعمون - أيها اليهود - أن إبراهيم وأبناءَه وحفدته كانوا يهودًا وهذا كذب وافتراء، وتزعمون - أيها النصارى - أن هؤلاء الرسل نصارى وهذا دجل وادعاء، فالله أخبر أنهم على الحنيفية ملة إبراهيم، وعلى الإسلام دين الأنبياء، وأنتم تخالفون هذا القول، فهل أنتم أعلم بهم من ربهم الذي خلقهم وهداهم وأرسلهم؟ بل الله أعلم وأصدق وأنتم أجهل وأكذب، ومن أشد ظلمًا وأقبح جرمًا منكم؛ لأنكم كتمتم شهادة عندكم من الله بالإيمان بكل الرسل والكتب، فكتمتم وكذبتم، كتمتم الحق وكذبتم في الشهادة، فالله لن يغفل عن هذا الفعل القبيح، بل هو محصيه ومجازيكم به أسوأ الجزاء، ومن كان الله عليه فمن يرجو، ومن كان معه فمن يخاف.

﴿١٤١﴾ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

وهذه الأمم السالفة مضت وانتهت، لستم مسؤولين عن إحسان من أحسن منهم، وإساءة من أساء، فصلاح صالحهم له لا يصلكم منه شيء، وفساد مفسدهم عليه لا ينالكم منه شيء، وإنما تجازون أنتم بأعمالكم، فلا نضيف حسنة لمن لم يعملها، ولا نُحَمِّل أحدًا سيئة لم يفعلها.

﴿١٤٢﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

سيقول الجُهلاء من اليهود والنصارى: لماذا تركتم قبلة بيت المقدس واستقبلتم الكعبة؟ مدعين أن هذا تذبذب وحيرة، فرد عليهم - سبحانه - بأن الجهات كلها لله بما فيها المشرق والمغرب، وهو الذي خلقها، يوجه من شاء من عباده إلى أيّ جهة شاء منها، فلماذا الاعتراض من هؤلاء الجهَلاء السفهاء؟

وأما توجيهه للمسلمين إلى الكعبة فهو أمرٌ منه - سبحانه - لحكمة أرادها؛ لأن الكعبة بناء إبراهيم الخليل الحنيف المسلم صاحب الملّة، فهي أولى بالاستقبال عند الصلاة، ثم إن المسلمين مُطيِعون لأمر الله سواء في استقبال بيت المقدس أو الكعبة، وأن طريق المسلمين ومنهجهم هو الصحيح الحق؛ لأنه من عند الله.

وفي الآية أن المعترض على الشريعة سفيه، وأن من جهل شيئًا عاداه، وأنه يُرَدُّ حتى على الجاهل ويبين له الصحيح في المسألة، وأن المعترض على الثوابت هالك، وأنه يجب التسليم حتى فيما خفيت الحكمة منه.

﴿١٤٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

ومن نعمة الله عليكم - أيها المسلمون - أن جعلكم وسطًا بين الأمم، وهي أعدل الطرق وأصوبها، فلا إفراط ولا تفريط، ولا علو ولا جفاء، فأنتم وسط في المعتقد والعبادة، وفي الأنبياء وفي الأخلاق والآداب والسلوك، وكل شؤون الحياة، فلا فسق اليهود، ولا رهبانية النصارى، ولا محاربة للرسل ولا عبادة لهم بل اتباع، فالمسلمون حسنة بين سيئتين، ووسط بين طرفين، ونجاة بين مهلكتين، وإنما جعل الله المسلمين وسطًا وعدولاً وخيارًا؛ ليقوموا بالشهادة على الناس، فقولهم مقبول، وحكمهم نافذ، وهم صادقون فيما يقولون، عادلون فيما يحكمون، وسوف يشهدون يوم القيامة على الأمم المكذبة بإرسال الرسل إليهم؛ لأن العدل يُقبل قولُه، وتصح شهادتُه لانتفاء التهمة، فقوله وحكمه وفتياه مقبولة، فهذه الأمة في مجموعها معصومة من الخطأ، إجماعها حجة، ومخالفتها ضلال، والخروج عليها بغي، والرسول ﷺ - وهو أعدل العدول وإمام الأئمة - شهيد على الأمة، فهو يشهد لمن أطاعه، ويشهد على من عصاه، ويشهد بصدق رسالته، ويشهد لمن قبله من الأنبياء، ويشهد على سائر الأمم يوم القيامة، والله ما أمر الرسول ﷺ باستقبال بيت المقدس إلا ليعلم علمًا يثيب عليه من أطاعه، ويُعَاقِب عليه من عصاه؛ لإقامة الدليل وبيان الحق والإعذار للناس؛ فيظهر من يطيع الرسول في استقبال القبلتين والتنقل معه في سائر أحوال الطاعات وتعدد العبادات، ويظهر من اعترض على الحق واتبع الهوى وخالف الرسول، ورفض الدليل.

وصَرْفُ الرسول ﷺ عن بيت المقدس إلى الكعبة شاق صعب؛ لعدم ظهور الحكمة لبعضهم وللحسد عند الآخرين. لكن من هداه الله فأسلم لربه ومولاه انقاد طائعًا، وأقبل مخبتًا، وسلّم الأمر لربه، ولم يعترض ويحتر ويتردد، وهذا شأن المسلم يسارع في تنفيذ أمر الله ظهرت له الحكمة أم لم تظهر؟

والله لا يضيع عمل المؤمنين وصلاتهم، ولا يبطل سعيهم بلا موجب، فهو حافظ لإيمانهم، من وفقه للطاعة زاده هدى، ومن وقع منهم في ذنب فتح له باب التوبة، ومن ابتلاه بمصيبة محَّصه بها، فالعباد في نعمة تُشْكَر، وذنب فيه يُسْتَغفر، ومصيبة تمحو وتُكَفِّر، والذين استقبلوا بيت المقدس من المسلمين ثم ماتوا ولم يصلوا للكعبة إيمانهم محفوظ، وسعيهم مشكور.

وفي الآية أن العمل يدخل في الإيمان، وثبوت النسخ، ووجوب التسليم، وهو - سبحانه - رؤوف يوصل المحاب إلى عباده من ألطف الطرق، ويصرف المكاره عنهم، وهو رحيم يعود على المذنب بالتوبة، والخائف بالأمن، والمكروب بالفرج، وعلى صاحب العسر باليسر، وعفا عنه فلا عتاب ولا عقاب.

﴿١٤٤﴾ ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

ولقد رأى الله رسوله ﷺ وهو يقلب وجهه في كل الجهات شوقًا وانتظارًا لأمر الله له باستقبال الكعبة؛ لأنه يريد قبلة إبراهيم مثلما كان على ملته الحنيفية السمحة، فالآن سوف نوجهك إلى قبلة تحبها وتتمناها وتريد أن تتجه إليها، فعليك باستقبال جهة المسجد الحرام، بيت إبراهيم وبلدك، وعلى أمتك جميعًا أن يستقبلوا هذا البيت في أي مكان كانوا برًّا وبحرًا أو جوًا حسب الاستطاعة.

وأهل الكتاب يعلمون أنك على حق في استقبال الكعبة؛ لأنك صادق عندهم في كتبهم؛ ولأن هذا الأمر معلوم عندهم من طريق رسلهم، لكنهم كابروا بغيًا وحسدًا؛ فالله محصٍ ما فعلوا؛ وحافظ ما عملوا من قول كاذب وفعل سيئ؛ ليوفيهم إياه ويجازيهم به في دار الثواب والعقاب.

﴿١٤٥﴾ ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

ولو عرضت كل برهان ودليل وحجة على أهل الكتاب ليتبعوا قبلتك ما فعلوا؛ حسدًا لك ولأمتك، وبغيًا منهم واستكبارًا على الحق، واعتراضًا على الدليل وعنادًا للحجة، وأنت أيها الرسول لن تتبع قبلتهم؛ لأن الحق معك، أنت عبد مأمور من ربك، وهم أهل باطل وزيغ وهوى، ثم إن أهل الكتاب من يهود ونصارى لا يتبع بعضهم قبلة بعض بغيًا وحسدًا، فكيف يتبعون قبلتك، فاحذر كل الحذر أن تتبع أهواءهم الباطلة؛ لأنهم تركوا الهدى واتبعوا الهوى، وأنت على علم بيِّن من ربك وسلطان ساطع ويقين راسخ، فإن آثرت الباطل على الحق، والهوى على الهدى من بعد هذا البيان والبرهان فأنت إذًا ممن بدّل الحقائق وغيَّر الأدلة، ورفض الحجة وهو الظالم، وحاشاه ﷺ، ولكنه إذا كان هذا الوعيد والتهديد له فمن باب أولى أن يكون لمن اتبعه، فمن والاهم من المسلمين فهو منهم يحشر معهم.

﴿١٤٦﴾ ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

اليهود والنصارى يعرفون محمدًا ﷺ حق المعرفة مثلما يعرف الإنسان ابنه؛ لأنهم قرؤوا أوصافه في كتبهم، لكن طائفة منهم كذبت به وكتمت أمره بغيًا وحسدًا، وهم يعلمون أنه رسول من عند الله، وطائفة آمنت به وصدقته، والعالم الكاتم آثم؛ لأنه صد عن عمد.

﴿١٤٧﴾ ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

هذا الوحي الذي نزل عليك - يا محمد - هو الحق؛ لسطوع برهانه ووضوح بيانه، فاعتصم به، واستمسك به، وادع إليه، ولا تشكَّ فيه. فإنك على الحق المبين، وأعداؤك ضالون.

﴿١٤٨﴾ ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

لكل أمة من الأمم قبلة يتجهون إليها، وقد تتغير بنسخ، لكن المسألة الكبرى والقضية العظمى مسألة الشريعة الحاملة للخيرات، الناهية عن المنكرات، والسبق للخيرات هو الإسراع والتنافس في أدائها على أكمل وجه تامة الأركان والشروط، مستوفية للآداب والسنن، والخيرات اسم جامع لكل عمل مشروع وفعل حسن وخلق نبيل، ثم ذكرهم - سبحانه - بأنه سوف يجمعهم من الأقطار كافة، من القفار والأمصار والبحار؛ ليجازيهم في تلك الدار ويثيب الأبرار، ويعاقب الفجار؛ لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء، علا فقهر، وحكم فقدر، واطلع فستر، وعزّ فغفر.

﴿١٤٩﴾ ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وفي أي مكان كنت في سفرك وإقامتك فتوجه في صلاتك إلى الكعبة؛ لأن هذا أمر من الله حق لا باطل، ويقين لا شك فيه، فأنت على الهدى في ذلك؛ لأنك امتثلت أمر الله، وكما أطعتموه في الظاهر باستقبال القبلة فأطيعوه في الباطن بالمراقبة؛ لأنه لا يغفل عن أعمالكم بل سوف يحاسبكم بها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فَشر.

﴿١٥٠﴾ ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

كرر الأمر بالتوجه إلى الكعبة؛ لرفع الشبهة وإزالة الشك والحَيْرة؛ لأن الأمر صعب وشاق، وللرد على المبطلين من أهل الكتاب والمشركين في قولهم: هذا من محمد للتشهي والهوى، واتجاه الرسول ﷺ إلى الكعبة يقطع حجة اليهود القائلين: يخالف ديننا ويتبع قبلتنا، ويقطع حجة المشركين القائلين: يدعو إلى ملة إبراهيم ويخالف قبلته، أما الظالم وهو صاحب الهوى الرافض للدليل المعرض عن الحق فلا سبيل إلى إقناعه، ومثله لا يُخْشى؛ لأنه صاحب باطل، وصاحب الباطل ذليل؛ لأنه ليس له دليل، ومخذول لأنه خالف المنقول والمعقول، والله أراد من تحويل القبلة إقامة الحجة كما تقدم، وإتمام النعمة بهدايته إلى قبلة يتمناها مثلما هداه إلى ملّة يرضاها، وفي استجابتكم لأمر الله هداية لكم؛ لأن من علم الحق وعمل به، زاده من الإيمان، وبوّأه الجنان، وأنعم عليه بالرضوان.

﴿١٥١﴾ ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

ومثلما أنعمنا عليكم بالقبلة فقد أنعمنا قبلها بنبي الملة، رسول معه شريعة، منكم تعرفون صدقه، يدرّسكم الوحي، ويلقنكم الحكمة، ويطهركم بدينه من كل رجس ودنس، فيصفي نفوسكم من كل شرك وشك وشبهة وشهوة، ويهذب أخلاقكم ويعلمكم الأحكام من الكتاب والسنة، ويخبركم بما لم تكونوا تعرفونه من أمر الدين والدنيا، ومن غيب الماضي والمستقبل.

﴿١٥٢﴾ ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

فما دام أنني أنا المنعم وحدي فاذكروني أذكركم، فمن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، ولو لم يكن للذكر شرف إلا هذا لكفى، ويدخل في ذلك ذكره بالعبادة ليذكر عبده بالثواب، وذكره في الرخاء ليذكره في الشدة، ثم أمر عباده أن يشكروه على نعمه وآلائه، ومن أعظمها نعمة الهداية، ومن لوازمها العلم النافع والعمل الصالح، فكل نعمة دَقَّت أو جلّت، صغرت أو كبرت فالله مسديها ومهديها، فمن شكره بقلبه ولسانه وجوارحه استوجب المزيد، ومن كفرها باء بالخسران، فالذكر والشكر أصلان عظيمان، عليهما تقوم العبودية الحقة، فبالذكر تعظم الولاية، وبالشكر تدوم الرعاية.

﴿١٥٣﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

يا أيها المؤمنون، استعينوا على طاعة ربكم بالصبر والصلاة؛ لتهون عليكم المشقة، فبالصبر ينال كل مطلوب ومحبوب، وبالصلاة تدفعون كل مبغوض من الذنوب؛ فالصبر يأمر بكل خير وبر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، واعلموا أن الله مع من صبر بحفظه وتأييده وتسديده، فما أشرفها من معيَّة، وما أعظمها من رعاية ربانية.

﴿١٥٤﴾ ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾

ولما أمرهم بالصبر ذكر لهم أمرا من أشق ما يكون على النفوس، وهو القتل في سبيل الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا، فالمقتول في سبيله ليس ميتًا، بل له حياةٌ مُخَصَّصَةٌ من التنعم في جوار ربه، والأنس بقربه، والفوز برضوانه وحبه، فما أعظمها من حياة، وما أسعدها من عاقبة، وهكذا فلتذهب النفس في سبيله. وحيا الله الموت لأجله، ومرحبًا

بالسيف في مرضاته، فأنتم أيها الناس لا تعلمون بحياتهم ونعيمهم وراحتهم، فماليت من مات قلبه بالعصيان، ومن حاد عن طاعة الرحمن.

وفي الآية إثبات نعيم البرزخ وعذابه.

١٥٥ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

لنختبرنكم بشيء من المصائب والشدائد؛ ليظهر الصادق من الكاذب مثل: الخوف من الأعداء، وقلة الغذاء، وذهاب بعض المال، وتكدر الحال، وموت الأحباب، والأقارب والأصحاب، وهلاك الثمار، وفناء الأشجار؛ لنبتليكم في هذه الدار؛ لأنها ليست دار قرار، ولن ينفعكم في هذه الحال والامتحان القاسي غير الصبر، فمن صبر فله الظفر، فهو الذي يُوَفَّى أجره بغير حساب، وينال أعلى الثواب، وتدخل عليه الملائكة من كل باب.

١٥٦ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

هؤلاء المؤمنون إذا وقعت بهم المصائب قالوا: نحن عبيد الله وملك لله، يقضي فينا ما يشاء من سراء وضراء وشدة ورخاء، فنحن تحت تدبيره ورهن تقديره، وسوف نرجع إليه للحساب، فمن صبر فله الثواب، ومن جزع فعليه العقاب، فالصابر مرحوم، والساخط محروم.

١٥٧ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾

فهؤلاء الصابرون لهم ثناء وتمجيد من الحميد المجيد، ولهم الرحمة والرضوان من الدّيان، لأنهم اهتدوا لعبودية ربهم بالشكر على النعم، والصبر على النقم، فالصلوات من الله تاج قبول، والرحمة أمان من الخسران، والهداية توفيق لأقوم طريق.

١٥٨ ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

الصفا والمروة من مناسك الحج، فعلى الحاج والمعتمر أن يسعى بينهما سبعة أشواط؛ لأن بعض الصحابة تحرّج من السعي بينهما لفعل المشركين، وخاف من التشبه بهم، فأخبر سبحانه أن هذا العمل مشروع، وأن المسلم يفعله عبادةً لله، والمشرك للأصنام، وقيدهما بالحج والعمرة؛ لأن السعي لا يكون دونهما بخلاف الطواف.

وفي الآية أن الأعمال بالنيات، وألاَّ نترك شيئًا من ديننا إذا فعل مثله الكافر خوف التشبه، وحرص الصحابة على البعد عن أعمال الجاهلية. والله شاكر لمن يعمل، يقبل اليسير ويهب الكثير، فهو يجازي على مجرد النيات، ويضاعف الحسنات، ويعيد ثواب الطاعات، فهمًا في الأذهان، وعافيةً في الأبدان، وحسنًا في الخلق، وبركة في الرزق، كل بحسب طاعته ونيته وسعيه؛ لأن الله عليم بقدر كل أحد وما يستحق، فكل عطاء بحكمة، وفي كل هبة رحمة.

١٥٩ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾

كل من كتم الحق من أهل الكتاب أو من هذه الأمة فإنه ملعون، والحق يشمل البينات الدالة على الحق التي أنزلها الله على رسوله، أو كتم العلم النافع الواجب نشره من فتيا أو قضاء أو شهادة، فمن هذا شأنه فجزاؤه الطرد من رحمة الله، وتقع عليه لعنة الخليقة؛ لأنه خان مولاه، وكتم ما أعطاه، وغش عباده، وأخفى البيان، وأظهر البهتان، واتخذ التدليس شعارًا، والتلبيس دثارًا، فكما أن معلم الخير يصلي عليه كل شيء؛ فكاتمه يلعنه كل شيء جزاء وفاقًا.

١٦٠ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

إلا الذين رجعوا عما اقترفوا، وتابوا عما أسرفوا، وندموا وأقلعوا واعتذروا إلى ربهم وأصلحوا ما سبق أن أفسدوه، وأظهروا ما كتموه، فهؤلاء يقبل الله توبتهم، ويغسل حوبتهم، ويغفر زلتهم؛ لأنه تواب يرجع على عباده بالعفو إذا تابوا، وبالإحسان إذا أنابوا؛ ولأنه رحيم لا يؤاخذ بذنبٍ غفره لصاحبه، بل يحسن إليه ويتغمده برحمته.

﴿١٦١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾

من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يؤمن فهذا مستوجب للعنة الدائمة من الله وملائكته والناس أجمعين.

﴿١٦٢﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾

ومن مات كافرًا فاللعنة عليه دائمة مع الخلود في نار جهنم لا يخفف عذابه، بل يزاد ولا يؤجل، بل ربه له بالمرصاد، فعذابه خلود بلا انقطاع، وزيادة بلا تخفيف، ومبادرة بلا إمهال. وسيمكثون في هذه اللعنة وفي النار لا يخفف عنهم العذاب الأليم بلا إمهال ولا تأخير.

﴿١٦٣﴾ ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾

إلهكم - أيها الناس - هو الله الواحد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا شبيه له ولا مثيل، ولا ندَّ ولا نظير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لا معبود بحق سواه، ولا إله يستحق العبادة إلا إياه، فلا إله إلا الله، ومن أدلة وحدانيته أنه رحمن رحيم، رحمن بكل المخلوقات؛ لأنه صاحب الهبات، ومعطي الخيرات، وصارف النقمات، ورحيم بأوليائه رحمة مُخَصَّصة يوصل لهم هداه، ويوفقهم لرضاه. ويصرفهم عما يكرهه ويأباه، فمن هذا وصفه استحق أن يكون الإله المعبود بحق.

﴿١٦٤﴾ ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

خلق السموات وارتفاعها واتساعها وشمسها وقمرها ونجومها وكواكبها ومجراتها؛ آية باهرة، وعلامة ظاهرة على عظمة الخالق وحكمته، وشاهد على ربوبيته، خَلْقُ الأرض وامتدادها وجبالها ووهادها وسهولها دليل على بديع صنع اللطيف الخبير، واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما بدقة وطولهما وقصرهما رسالة موحية لكل عاقل بعظمة المبدع وجلال الصانع تقدس اسمه، والسفن العظيمة وهي تحمل الأحمال الثقيلة من الحديد والناس والأرزاق أعجوبة مذهلة توحي بألوهية العزيز الجبار سبحانه، إنْزَالَ الماء من السماء وهطوله على الأرض وإخراج النبات والأشجار برهان ساطع ودليل قاطع على تمام القدرة وكمال الحكمة لهذا الرب العظيم والملك الكريم، تَعَدُّدُ المخلوقات من الناس والحيوانات والطيور والزواحف باختلاف الصور والألوان والأشكال والألسن كتاب مفتوح لكل متدبر، وسفر مشروح لكل متفكر، وُهُبُوبُ الرياح من كل اتجاه، سريعة وبطيئة، نافعة وضارة، قاصف وعاصف، حارة وباردة، تنبيه موحٍ، وبلاغ مهم لكل من يحترم عقله، ويقدر إنسانيته، فيعلم من أوجدها وأرسلها، والسحاب كالهضاب، والغمام كالآكام، يحمل كميات كبيرة من المياه بين السماء والأرض، وكيف يمطر، وكيف يعبر، وطريقة انتشاره وتراكمه، وارتفاعه وانخفاضه، بيان فصيح وإرشاد صحيح بحكمة الملك الحق المستحق للعبودية، المستحق للألوهية، لكن تلك الآيات الباهرة هي لمن كان له عقل يعتبر، أما الجاهل والجاحد والمكذب فمطموس البصيرة، منكوس القلب، محجوب البصر عن هذه الآيات.

﴿١٦٥﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾

من الناس مَنْ لكفرهم وجهلهم من يعبدون غير الله ويجعلونهم شركاء لله - تعالى الله عن ذلك - ويتولونهم ويحبونهم مثل حبهم لله الذي خلقهم ورزقهم، وهذا لعنادهم وإلحادهم، ولكن المؤمنون عرفوا الحقيقة، وسلكوا أحسن طريقة، فأحبوا الله أشد من حب الكفار للأنداد والأوثان، فصدقوا رسله، وآمنوا بكتبه، وجاهدوا في سبيله، ولو رأى هؤلاء

الكفرة الفجرة العذاب في نار جهنم لرأوا أمرًا مذهلاً مهولاً، وعلموا عظمة الله وأحقيته بالألوهية في وقت لا ينفع الندم بعد عثرة القدم، حينها يشاهدون قوة الله وعذابه وبطشه ونقمته.

﴿١٦٦﴾ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾

حينها يتبرأ المتَّبَعون المطاعون من التابعين الجُهلاء، ويتخلى الرؤساء المضلون عن أنصارهم السفهاء؛ لأنهم شاهدوا ما لا طاقة لهم به من العذاب وأليم العقاب، وتقطعت بهم الأسباب من الأحساب والأنساب والمنافع التي تربط الأصحاب، والصلات التي تجمع الأحباب.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

وتمنى الأتباع لو يعودون إلى الدنيا فيخلعون زعماءهم المضلين، وينبذون رؤساءهم الكافرين مثلما تبرأ الرؤساء منهم وتخلوا عنهم سواء بسواء، لكن هيهات سبق الكتاب ووقع الحساب، وحلت العقوبة لينال الرئيس الضال جزاء عمله ونكال إغوائه، ويذوق التابع المقلد وبَالَ تقليده وسوء محاكاته، لتظهر للجميع أعمالهم القبيحة ندمات وحسرات وزفرات وآهات، فلا شافع ينفع، ولا ولي يدفع، ولا ناصر يرفع، بل عذاب أليم، وخزي مقيم، في خلود أبدي، وبقاء سرمدي.

﴿١٦٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

يا أيها البشر، كلوا من رزق ربكم الذي أخرجه لكم من الأرض، لكن عن طريق الحلال لا الحرام، فلا تأكلوا ما حرمه الله من غصب أو سرقة أو ربًا أو رشوة أو نحوها من المعاملات المنهي عنها، ولا تقربوا الخبيث كالميتة والدم ولحم الخنزير وما نص الله ورسوله على وجوب اجتنابه، بل اقصدوا الطيب الحلال، فإن أخذكم من الغذاء بقدر إقامة الحياة واجب، واحذروا أن تسلكوا سبل الشيطان في تحريم الحلال وتحليل الحرام، بل عليكم بما شرعه الرحمن؛ لأن الشيطان عدو لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير، ولا يدل إلا على رَدَى، ولا يحذر إلا من هُدِى، وقد بانت عداوته، وظهر غشه وخداعه ومكره.

﴿١٦٩﴾ ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

فالشيطان لا يأمركم إلا بالسوء كالظلم والأذي والبغي والعدوان والفحشاء كالزنا، وشرب الخمر، فالسوء ما ساء صاحبه، والفحشاء ما فحش عند الناس وخرج عن العرف والقياس، ومما يأمركم به الشيطان القول على الله بالجهل لا بالعلم، كنسبة الزوجة والولد له - سبحانه - والخوض في ذاته، وتحريف أسمائه، وتأويل صفاته، وتبديل آياته، والتحليل والتحريم بلا علم، والإضافة إلى الشرع ما ليس منه بلا فهم.

﴿١٧٠﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾

وإذا نُصِحَ هؤلاء المشركون باتباع ما أنزل الله على رسوله من الهدى والبيان رفضوا النصيحة، وقالوا: بل نتبع ما وجدنا عليه الآباء، فيقال لهم: حتى ولو كان الآباء سفهاء أغبياء لا عقل يردعهم عن الضلال، ولا هدى يدلهم على طاعة ذي الجلال، فقد فقدوا سداد المعقول، ونور المنقول.

﴿١٧١﴾ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

مثل هؤلاء الكفار في عدم انتفاعهم بنصوص الوحي وأنوار الشريعة كمثل الراعي الذي يصيح بغنمه، فهي تسمع الصوت ولا تفهم الخطاب، فهؤلاء الكفار يسمعون اللفظ ولا يعرفون المعنى، ويصلهم الصوت ولا يدركون الفحوى، انطمست منهم البصيرة فهم في حيرة، فلا رادع من عقل، ولا وازع من نقل، صم عن الهدى، خرس عن الحق، عمي عن الصواب، لا يعرفون الرشاد ولا يوفقون للسداد، ألسنتهم خرساء، وعيونهم عمياء وآذانهم صماء، وقلوبهم في غطاء، يعيشون كالأنعام، ويسرحون كالهوام، فحياتهم حياة بهائم، وعيشهم عيش السوائم.

﴿١٧٢﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾

فما دام الكفار أخطؤوا في عبادتهم ومطعمهم فعبدوا الأصنام وأكلوا الحرام فأنتم - أيها المؤمنون - كلوا من الطيبات واشكروا رب الأرض والسموات، فأمرهم بإطابة المطعم، وشكر المنعم إن كانوا إياه يعبدون وله يسجدون.

وفي الآية إباحة الطيبات والاستعانة بها على الطاعات بلا مخيلة ولا سَرَف، ولا تعدٍّ ولا ترف، ووجوب الشكر ودوام الذكر.

﴿١٧٣﴾ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

ثم ذكر - سبحانه - المحرمات لقلتها، وسكت عن المباحات لكثرتها، فنهاهم عن الميتة التي لم تُذكَّ؛ لأنها لم تزك، والدم لما فيه من ضرر على الجسم، وعن لحم الخنزير لقذارة لحمه وأثره في الأخلاق، وعن كل ما ذُبح للأصنام والأوثان، والأولياء والشيطان، إلا من بلغت به الحاجة مبلغًا وخاف التلف وأشرف على الموت فيجوز له تناول ما يبقي حياته بشرط ألا يكون طالبًا للحرام مع وجود الحلال، أو متجاوزًا للحد في الأكل بل بقدر الحاجة؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات، وإنما أباح الله ذلك؛ لأنه واسع المغفرة يتجاوز عن الذنب بلا عقاب؛ كثير الرحمة يقابل التائب بالثواب.

﴿١٧٤﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

والذين يخفون ما أنزل الله من الحق فلا يظهرونه، ويكتمونه فلا يعلنونه، من أجل الحطام، ومداهنة للآثام، وخوفًا من الحكام، ولطلب الجاه والمكانة، فجزاؤهم اللعنة والمهانة، فأكلهم الذي أكلوه مقابل العلم الذي كتموه يجعله الله نارًا في بطونهم يوم القيامة جزاء وفاقًا، ولا يكلمهم الله إعراضًا عنهم وإهانة لهم، ولا يطهرهم من دنس الذنوب؛ لأنهم حملوا القبائح والعيوب، ولهم عذابٌ مؤلم موجع.

وفي الآية إثبات صفة الكلام للملك العلام.

﴿١٧٥﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾

هؤلاء الكفار المكذبون باعوا الهدى واشتروا الضلالة لاستيلاء السفه والجهالة عليهم، واختاروا العذاب في النار على مغفرة العزيز الغفار، فما أصبرهم على النار، كيف يستطيعون عذابها وهي لا تُطاق لما فيها من النكال والإحراق.

﴿١٧٦﴾ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾

وهذا العذاب الذي ذاقوه لأنهم كفروا بالكتاب المبين، وكتموا الحق من رب العالمين، فما دام أن الله أنزله بالحق فمن الحق أن للمحسن الثواب، وعلى المسيء العقاب، والذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه من اليهود والنصارى في محادة لله وفي نزاع بينهم واختلاف في قلوبهم؛ لأنهم لما فرقوا كتاب ربهم؛ فرّق الله شملهم وشتت كلمتهم، فهم في بُعد عن الصواب، وهم مستوجبون للعذاب.

﴿١٧٧﴾ ﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾

ليست القضية مجرد تَوجُّه إلى جهة من الجهات في المشرق والمغرب، لكن القضية الكبرى والمسألة العظمى هي الإيمان بالله ربًّا وإلهًا، وإخلاص العبودية والاستعداد وإصلاح العمل والإيمان بالملائكة كما أخبر عنهم الوحي، وأنهم عبيد لله مقربون لهم مهمات، وكذلك الإيمان بالكتب السماوية وأنها حق من عند الله، وأن الله أنزلها على رسله،

وأيضًا الإيمان بالمرسلين من رب العالمين، مَنْ ذُكر ومَنْ لم يُذكر، والاعتراف برسالتهم، ومن الإيمان بذل المال مع شدة التعلق بحبه والرغبة فيه، ولكن النفس سَخَتْ به رجاء ثواب الله وخوف عقابه، فبدأ بذي القربى؛ لأنهم أقرب في النفس وألصق بالإنسان، وأعظم صلة، وأعطى اليتامى لفقدهم الولاية، وحرمانهم من الرعاية، فتعاهدهم ببره ووصلهم من خيره، ووصلَ المساكين من المعوزين المحرومين فأطعم جائعهم، وكسى عاريهم، ولمّ شعثهم، ومنحَ ابن السبيل الذي انقطع به الطريق، فلا رفيق، ولا صديق، فأسعد حاله، وأجزل نواله، وأجاب سؤاله، وأكرمَ السائل، وأدخلَ عليه المسرة، ورفعَ عنه المضرة، وواساه من البر، وجبرَ منه الكسر، وفكَّ الأسرى من يد الكفار، وأعطى القريب والمحبوب في الدين من ماله، وأدى الحقوق ففرج كربة المحتاج، وآنس وحشته، وأقام الصلاة حق الإقامة، فأداها على الكمال والتمام، بخضوعها وخشوعها كما شُرعت، وأعطى زكاة ماله فطهر نفسه، وزكى ماله، وواسى إخوانه، وأطاع ربه، وشكر مولاه، ووفّى بالعقود، وصدق في العهود، واحترم كل ميثاق، وبرَّ في كل اتفاق بينه وبين الخالق والخلق، وصبر على الفقر وألمه وشدته فرضي عن ربه، وجعل القناعة في قلبه، وستر الحاجة بالتجمل، والفقر بالتّحمل، فترك التسخط والجزع، والتذمر والهلع، ولزم التقوى والورع، وصبر على ما أصابه من أمراض وبلاء، وفوّض الأمر لرب الأرض والسماء، ولم يشكُ الخالق إلى الخلق وما اعترض على القضاء، بل صبر على الضراء، وسلم الأمر للمدبّر ووكلّ الملك للمالك، وصبر وثبت عند القتال ومصاولة الرجال، فما جزع ولا فر بل ثبت واستقر أملاً في الأجر، فمن اتصف بهذه الصفات، وقام هذه المقامات، فهو المؤمن حقًا، البار صدقًا، وهو المتقي لربه، الفائز ببره وقربه، فالصادق يشمل فاعل الطاعات، والمتقي يعم هاجر المنهيات.

﴿١٧٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

فرض عليكم - أيها المؤمنون - أن تقتلوا القاتل بالمقتول إذا وجب عليه القتل وانتفى المانع، فالحُرُّ يقتل بالحُرِّ، والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى، ولا تتجاوزوا الحدود فتقتلوا غير القاتل كفعل الجاهلية، أو تهدروا دم الضعيف كفعل الوثنية، بل عليكم بالعدل في الدية والقتل، فمن أسقط حقه في القصاص، ورضي بالدية، فلا يعنف الولي في مطالبته بالمال، ولا يسوف القاتل في دفع الدية إلى من له الحق بل إحسان من الطرفين في الاستقضاء والقضاء، وقد يسَّر الله على الأمة فخفف ورحم، فشرع الدية رحمةً بالقاتل ولطفًا بأهل القتيل إذا وقع الرضا وزال المقتضى، ولكن من أخذ الدية ثم قتل فقد ظلم وجهل، فالله أعدّ له العذاب الأليم على هذا الذنب العظيم.

﴿١٧٩﴾ ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

ولكم - أيها المؤمنون - في قتل القاتل حياة لما بقي من الأنفس، فإن الإنسان إذا تيقن أنه سيقتل لو قتل؛ كف عن سفك الدماء، وقَتْل الأحياء، فَعَمَّ الأمن في المجتمع، واستقامت حياة الناس، فالنفوس تعصم، والدماء تصان، والأمن يستقر، والمجتمع يسعد، وإنما يفهم سر التشريع وحكمة الباري ومحاسن الدّين من كان سليم العقل نيّر البصيرة طاهر الضمير، وتشريع القصاص من أجل أن يتقي العبد ربه فيكف عن البغي والعدوان، وظلم الإنسان، واستحلال ما حرم الله منه.

﴿١٨٠﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

أوجبنا عليكم - أيها المؤمنون - إذا أشرف أحدكم على الوفاة أن يوصي لوالديه وأقاربه من ميراثه بجزء بحيث لا يضر بالورثة بما لا يزيد على الثلث، فلا يحرم نفسه الأجر، ولا ينسى أقاربه من البر، ولا يجحف بورثته في القسمة وكان ذلك الأمر حقًا واجبًا على من اتقى ربه وأطاعه، ونسخ الحكم بآية الميراث ليعطي كل ذي حقٍ حقه، وتحدّد نوعية القرابة ومقدار الحق ويخرج من لا حق له، فسبحان الملك الحق.

﴿١٨١﴾ ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾

فمن غيَّر هذه الوصية أو حرّف في نقلها أو كَتْمها من وصي أو كاتب أو شاهد فذنبها وجرمها على من ارتكب ذلك لا يتعداه؛ لأنه فقد الأمانة، وارتكب الخيانة، وأضاع الحقوق، وحرم المستحق، والله لا تخفى عليه خافية؛ فهو مطلع على النيات، يسمع الأصوات، ويعلم الأعمال والحالات، فويل لمن بدّل. والخسار على مَنْ حرّف وغيّر.

﴿١٨٢﴾ ﴿ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

ومن تخوَّف أن يميل الموصي في الوصية ولا يعدل، بحيث يميل على الورثة فيجحف في الوصية بالزيادة، فيضرُّ بالميراث ويحرم المُوصَى له من الأقارب فيأثم بإبطال الحق، فلا بأس أن يصلح من يريد الخير فيأمره بالعدل والإحسان بلا ضَرَر ولا ضِرَار، فيوصي بالأرفق للوارث والأحسن للمُوصَى له، والله يغفر للمجتهد خطأه ويثيبه على سعيه؛ لأنه رحيم بعباده.

وفي الآية فضل الإصلاح، وجواز الاجتهاد وأجر المجتهد ومردّ ذلك النية.

﴿١٨٣﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾

يا أيها المؤمنون، لقد فرض الله عليكم صيام رمضان، كما فرضه على الأمم قبلكم، فامتثلوا كما امتثلوا؛ لأن في صيامه أسباب التقوى لكم، من تنفيذ الأمر، وكسر النفس الأمارة، وتعلُّم الصبر، واجتناب المنهي عنه، ومخالفة الهوى، ومحاربة الشيطان، وعبودية المجاهدة.

﴿١٨٤﴾ ﴿ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

والصيام المفروض أيام قلائل، ووقت مقتطع من زمن طويل، ففطركم أطول من صيامكم، وزمن أكلكم أكثر من زمن إمساككم، رحمة بكم، ولطفًا بضعفكم، فأما المريض الذي يشق عليه الصيام، والمسافر الذي فارق المقام، فلهما الفطر نهار رمضان، والقضاء بعده بعدد الأيام، وعلى من يقدر على الصيام لكن بمشقة شديدة وكلفة كالشيخ الكبير والعجوز الهرمة إذا أفطروا عليهم إطعام مسكين عن كل يوم، وصيامكم أفضل من فطركم؛ لأن الصوم خير لكم في الأجر، وتربية النفس على البر، وتلبية الأمر، وتوطين النفس على الصبر، ولو علمتم منافع الصوم وفوائده لصمتم.

﴿١٨٥﴾ ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

هذا الشهر المبارك له شرف عظيم، ومقام كريم، ومناسبة سعيدة، ومنزلة حميدة، ففيه أكرمناكم بنزول القرآن كله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، هذا القرآن الذي فيه سر سعادتكم ومجدكم وعزتكم ونجاتكم ونصركم وفلاحكم في الدارين، فاشكروا الله على هذه النعمة بصيام هذا الشهر الكريم، وهذا القرآن فيه أدلة واضحة وبراهين جلية من العلم النافع والعمل الصالح وبيان الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والخير من الشر، وأخبار الماضي وأنباء المستقبل، وعلى من يدركه الشهر وهو حي صحيح مقيم أن يصومه وجوبًا، فلا عذر له في ترك الصيام، وأما المريض والمسافر فلهم العذر في ترك الصيام حتى يُشْفَى المريض ويقيم المسافر فيقضيان بقدر الأيام، والله سبحانه يريد بنا اليسر؛ ولذلك أباح للمسافر والمريض الفطر، وجعل الصيام شهرًا واحدًا فحسب، ومن النهار إلى الليل فقط، بل كل الشريعة ميسرة سمحة سهلة لا تكليف فيها ولا مشقة ولا حرج؛ لأنه لا يريد بنا العنت والصعوبة والإحراج، بل وضع عنا الآصار والأغلال، ولطف بنا ورحمنا، فله الحمد والشكر، فإذا صام من فاته صيام

رمضان عدة من أيام أخر فقد أكمل العدة، ولا يجوز صيام بعض الشهر للمستطيع، وفطر بعضه، بل يصومه كله إكمالاً وتمامًا، ويُكبِّر الله - سبحانه - عند انقضاء الشهر ورؤية الهلال وانقضاء أيام العيد؛ لأنها أيام فرح واحتفال، وليَشْكُرْ المولى - جل وعلا - على ما أنعم، وتفضل وأكرم، وسدد وألهم، فهو صاحب المواهب، ومسدي العطايا، ومهدي الخيرات.

﴿١٨٦﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

قال بعض الصحابة: يا رسول الله، أربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأمر الله - عز وجل- رسوله أن يخبر عباده أنه سميع قريب مجيب، يسمع دعاءهم، ويجيب سؤالهم، ويكشف كَرْبَهم، ويزيل هَمَّهم، ويذهب غمهم، ويلبي طلبهم، ويعلم أحوالهم، فعلى العبد أن يسأل ولا ييأس، ويطلب ولا يقنط؛ فالجود واسع، والعطاء كثير، والفضل جزيل، وعلى العباد أن يطيعوا ربهم باتباع رسوله ﷺ والعمل بشرعه، ويُصدِّقوا بما أنزل في كتابه، ويتيقنوا بصحة ما جاء به، فالاستجابة عمل، والإيمان اعتقاد، والدعاء قول. فالدين قول وعمل واعتقاد، ومن أطاع الله فقد رشد؛ لأنه أُلْهِم الصواب، ووفق للسداد، وسلك الجادة وخالف الهوى، وجانب الغواية، فثمرة العمل الصالح زيادة في الإيمان، وعاقبة الطاعة زيادة في الهداية.

﴿١٨٧﴾ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

أحل الله لكم بعد التحريم جماعَ نسائكم ليل رمضان؛ لأنهن ستر وغطاء وسكن لكم؛ لأن المرأة تزين زوجها وتستر قبحه، وتعينه على غض بصره، وحفظ فرجه، وسكون قلبه واستقرار نفسه، وتمنعه من الفضيحة مع غيرها بما يعاشرها من الحلال، والرجل لباس لزوجته يجملها ويسترها ويعفها ويحجبها ويمنعها من الحرام بالحلال، فما ألطف العبارة وما أجمل الإشارة، وسبب إباحة الجماع ليل رمضان أن الله علم أن بعض المسلمين كانوا يتعرضون للعقاب بمقارفة الجماع ليلاً يوم كان محرمًا، فأباحه وسامح فيه ورخص رحمةً منه، فالجماع في ليل رمضان مباح بالإجماع، فالله عاد بالتوبة على عباده ولم يؤاخذ بما سلف، فبعد الرخصة أبيح الجماع لطلب الولد والذرية الصالحة وإعفاف النفس وأداء الحق، فعليكم بإحسان النية في الجماع لحصول النسل المبارك، وليس لمجرد اللذة العابرة والشهوة القاصرة، فاللذات بالنيات طاعات، والعادات بالمرادات عبادات، وكلوا واشربوا ليالي الصيام حتى يطلع الفجر بحيث يتبيّن لكم خيط الصبح الأبيض وهو العمود المعترض في السماء من خيط الليل الأسود، ثم أمسكوا عن كل المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ومن كان معتكفًا في المسجد فلا يقربن زوجته ليلاً أو نهارًا طيلة اعتكافه، لحرمة الزمان والمكان وعبادة الرحمن، فهذه محارم الله وحدوده وأوامره ونواهيه، فلا تتجاوزوها ولا تنتهكوها، والتعبير بالقرب لمنع كل داعٍ يوصل إلى معصية الرب، فالله يبيّن لكم الأحكام لتجتنبوا الحرام، وتتقوا الملك العلام، وتحذروا عذابه، وتخافوا عقابه، وتطلبوا ثوابه.

وفي الآية:- أن من أعظم أسباب التقوى تعلم العلم ومعرفة الأحكام والفقه في الدين.

﴿١٨٨﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ولا يأكل بعضكم أموال بعض بالحرام ورشوة الحكام وأنتم تعلمون بطلان ذلك والنهي عنه، وجاءت هذه الآية بعد آيات الصيام؛ ليدل على أن من امتنع في ذلك الزمن عن الطعام فعليه أن يمتنع في كل زمن عن الحرام، ويحصل ذلك بكسر النفس وتربيتها وتهذيبها، وطريق ذلك هو الصوم؛ لما فيه من تأديب ومصابرة، فلا يجوز أكل أموال الناس

بالإثم والخديعة والغش والتدليس وأنواع البيوع المحرمة، ولا بالعدوان كالغصب والظلم والسرقة وجحد العارية والوديعة ونحوها، فالحمد لله الذي أمر بحفظ النفوس، فحرم قتلها إلا بحق، وحفظ الأموال، فنهى عن أخذها بالباطل، وحفظ الأعراض بحدود وتعزيرات.

﴿١٨٩﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

يسألك الناس عن الحكمة من كون الهلال يبدأ صغيرًا ثم يكبر شيئًا فشيئًا، فأخبرهم أن الله أراد أن يعرِّفهم أوقات العبادة، وأزمان الطاعة من صيام وزكاة وحج وغير ذلك، وليس العمل الصالح أن تدخلوا بيوتكم من خلفها كما كنتم تفعلون في الجاهلية، ولكن الطاعة الشرعية لا الجاهلية ولا البدعية هي امتثال أمر الله ودخول المنازل من الأبواب مع هجر المخالفات وترك المنكرات، ففي ذلك الفوز والظفر.

وفي الآية:- أن على المسلم أن يأتي كل أمر من بابه، ويسلك المدخل المناسب سواء في العلم أو العمل؛ ليصل إلى أفضل الثمار وأحسن النتائج.

﴿١٩٠﴾ ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

وجاهدوا الكفار لإعلاء كلمة الواحد القهار وليس لأغراض دنيويَّة ودعاوى جاهلية، ولا تقاتلوا إلا من قاتلكم، أما من سالمكم أو عاهدكم فوفَّى فلا تقاتلوه، ولا تعتدوا بقتل من ليس من أهل القتال، كالشيوخ والنساء والأطفال، وقتل من أمنتموه أو أسرتموه أو عاهدتموه، فالله لا يحب العدوان وأهله، والظلم ومرتكبيه، وانظر إلى هذا العدل والميزان من الرحمن حتى مع أعدائه، فما أجلّها من شريعة، وما أعظمه من دين.

﴿١٩١﴾ ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

حيث وجدتم الكفار فاقتلوهم في الحل والحرم واطردوهم من دياركم؛ لأنهم قاتلوكم وطردوكم، فأذيقوهم مرارة الحرمان من الأمان والأوطان؛ لأن فتنتهم للمؤمنين وإيذاءهم في الدين وصدهم عن المسجد الحرام ومحاربة الإسلام أشد ضررًا من قتلكم إياهم في الحرم، ولا تبدؤوا قتالهم عند المسجد الحرام لعظيم حرمته وجلالة منزلته حتى يبدؤوكم هم، فإذا حصلت منهم مقاتلة فالبادي أظلم، والانتصار من البغي واجب، فعليكم بكف أذاهم وسل السيف عليهم، فهذا جزاء كل مجرم وباغٍ؛ ليُحمى الدين وتُصان الملّة، وتُحمى الشريعة، ويعلو الحق.

﴿١٩٢﴾ ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

فإن تركوا قتال المسلمين واعتنقوا الدين، فلا تتعرضوا لهم بالقتال، لتغير الحال، والله يتوب على من تاب، ويقبل من أناب، وفيه مسالمة من سالم وعدم التعرض له.

﴿١٩٣﴾ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وقاتلوا من حارب الإسلام وعبد الأصنام، حتى لا يبقى لهم شوكة ولا دولة، ولا قوة ولا صولة، فيستمر منهم الإيذاء ويعظم البلاء، فالحق قد لا يحفظ إلا بجلاد، والإسلام قد لا ينصر إلا بجهاد، فإن انتهوا عن الشرك وتركوا القتال والفتك، فمن قاتلهم بعد ذلك فقد اعتدى ولا عدوان إلا على الظالم، وليس على المسلم، وفيه موادعة من وادعنا والوفاء بعهد من عاهدنا.

﴿١٩٤﴾ ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

وإن قاتلوكم في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام مثلاً بمثل وسواء بسواء، ومن ارتكب محرَّمًا عُوقب بمثله؛ فمن قتل قُتل، ومن جرح جُرح، ومن سلب مالاً أُخذ من ماله مثله؛ لأن هذا هو العدل مثلاً بمثل؛ لأن من اعتدى عليكم لا يكفُّه إلا أن تعاملوه بالمثل لحسم شره ودفع ضره، وراقبوا ربكم في هذا القتال، فلا تبدؤوا أنتم، ولا تقاتلوا من لم يقاتل؛ لأن الله يحب من اتقاه وراعى حدوده وعهوده، وهو معه ينصره ويؤيّده، ويحميه ويسدّده، وهي معية القرب والولاية، والحفظ والرعاية.

﴿١٩٥﴾ ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

أنفقوا أموالكم وابذلوها لنصرة الدين ولإعلاء كلمة الله، فإن لم تفعلوا تَقَوّى الكافر فأهلككم، وتسلط عليكم، فمن ترك الغزو والإنفاق في سبيل الله عرَّض نفسه للهلاك في الدنيا والآخرة، فطريق العلياء التعب، والمشقة سبيل الظفر والفوز، وكم من راحة أعقبت ندمًا، ومن ذلة أوجبت خزيًا، ومَنْ طلب الموت وهبت له الحياة.

وعليكم بتجويد أعمالكم بالإخلاص والمتابعة مع إحسانكم بالبذل والسخاء، فالإحسان في القول السداد، وفي العمل الإتقان، والله يحب من أحسن في عمله.

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

ومن شَرَعَ في الحج والعمرة منكم فليكمل عمله ولا يقطعه وليتم نسكه، وأخلصوا لله فيهما، فإن حالَ بينكم وبين الحج والعمرة مرض أو عدو، أو طريق مَخُوف، فتحللوا واذبحوا ما تيسر من الإبل أو البقر والغنم، ولا يجوز لكم التحلل من الإحرام بحلق أو تقصير حتى تذبحوا الهدي إما في الحرم أو حيث أحصرتم، والمحرم الذي يضطر إلى حلق رأسه لمرض في جسمه أو ألم في رأسه فعليه أن يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين، أو يذبح شاة للفقراء، وإذا لم يكن هناك خوف بل كنتم آمنين ولم تُحصروا عن البيت فإذا اعتمرتم في أشهر الحج ثم حججتم من عامكم فعليكم بذبح شاة شكرًا لله على ما أعطاكم، ولتيسير الحج والعمرة في عام واحد، فالحمد لله على ما حباكم، فإذا لم يجد قيمة الهدي فليصم عشرة أيام ثلاثة منها وهو حاج، وسبعة إذا رجع إلى وطنه، وهذا الهدي على من كان بعيدًا عن الحرم، أما أهل الحرم فليس عليهم دم، وعليكم بتقوى الله في فعل مناسك الحج وترك محذوراته والقيام بالهدي والفدية؛ لأن الله شديد عقابه لمن عصاه، فليحذره سبحانه.

﴿١٩٧﴾ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

الحج أشهر معروفة محدّدة وهي: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، فمن أوجب على نفسه الحج بالدخول فيه فلا يجامع النساء ولا يعصي ربه ولا يخاصم إخوانه، وهذا حكم مع النفس والأهل والناس، ولا يكفي ترك المعاصي بل عليه عمل الطاعات من الكلام الطيب والذكر والصدقة وحسن الخلق؛ فالله يعلم السرائر ويطلع على ما في الضمائر، فيوفي كلاً بعمله، وعليكم بزاد السفر ليعينكم على الحج، ولا تنسوا زاد الآخرة من العمل الصالح فإنه أعظم زاد ليوم المعاد، ويا أهل العقول خافوا عذابي واخشوا عقابي بعمل طاعتي واجتناب معصيتي.

﴿١٩٨﴾ ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾

وليس عليكم حرج أن تتاجروا في الحج، فالبيع والشراء فيه مباح؛ لأنه موسم للدنيا والآخرة، والرازق هو الله وحده، فاطلبوا الرزق من عنده بفعل الأسباب، فإذا عدتم من عرفات فقفوا عند المشعر الحرام بمزدلفة وأكثروا الذكر والدعاء شكرًا لله على أن هداكم صراطه المستقيم ودينه القويم، لأنكم كنتم قبل هدايته لكم في ضلال وشر حال، فهداكم عن الضلالة، وعلَّمكُم من الجهالة.

﴿١٩٩﴾ ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وانزلوا مع الناس من عرفة لا من مزدلفة؛ لأن قريشًا كانت تخص نفسها عن الناس بمزدلفة، وعليكم بالاستغفار؛ لأنه لا يخلو العمل من تقصير ليزول عنكم عجب الطاعة ويجبر كسر التقصير، فالله يغفر الذنب بستره، ويرحم عبده لضعفه وفقره، فهو كثير الغفران، رحيم رحمن.

﴿٢٠٠﴾ ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾

فإذا أكملتم مناسك الحج فعليكم بذكر ربكم كثيرًا مثلما كنتم تذكرون مفاخر آبائكم وتمدحونهم، فالله أحق بالمدح، فأكثروا ذكره بمحامده، فهو أحق من ذُكر وأولى من شُكر، والناس منهم من همه الدنيا فحسب، يسعى إليها، ويطمع في غناها وجاهها ومتاعها الفاني ومجدها الزائل، وهذا ليس له في الآخرة حظ عند ربه من النعيم، ولا قسم له من الأجر الكريم؛ لأنه باع آخرته بدنياه.

﴿٢٠١﴾ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

ومنهم - وهم الأفضل - فريق طلبوا من ربهم خير الدارين؛ صحةً في الدنيا، وعافيةً وسترًا، ومجداً ونصرا، وغنىً وذخرًا، وسألوا في الآخرة الفوز بالأجر العظيم والنعيم المقيم، في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، مع الوقاية من النار وغضب الجبار.

﴿٢٠٢﴾ ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

وهؤلاء فائزون أبرار، سعداء أخيار، فهم أحسنوا فيما سألوا، وأجادوا فيما أقلّوا، فلهم قسط وافر من الأجر، وقسم عظيم من الثواب، من قرة العين وبهجة النفس والأمان في جوار الرحمن؛ لأن الله سوف يقيم القيامة للمجازاة فينال كل جزاءه؛ لأنه سريع الحساب، يحاسب العدد الكثير في الزمن القصير، وهو عليه يسير.

﴿٢٠٣﴾ ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

وأكثروا ذكر ربكم في أيام الحج فإنها أيام معدودات تمر سريعًا، فاغتنموها، فمن استعجل منكم الخروج من منى بعد يومي الحادي عشر والثاني عشر من عيد الأضحى فمباح له ذلك ولا حرج عليه، ومن تأخر أكمل الثالث عشر فهو خير، وذلك الحكم وهو التأجل والتعجّل هو لمن اتقى ربّه وخاف وعيده، وعليكم بالخوف من الله ومراقبته وحفظ حدوده وتيقنوا أنكم تُجْمَعون عند ربكم للحساب، وإنما ذكر حشر الناس؛ لأن اجتماع الناس في الحج يذكر باجتماعهم عند ربهم للجزاء.

﴿٢٠٤﴾ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾

ولما ذكر الأخيار البررة أتى لذكر الفسقة الفجرة، فأخبر أن منهم من يملك نفسك بفصاحته، ويبهج قلبك ببلاغته، لكنه كذاب فاجر، منافق غادر، وزيادة في نفاقه وإمعانًا فيه يعلن أن الله شاهد على ما في قلبه من الحب له ولدينه ورسوله، وهو أشد الأعداء الألداء محاربةً للدين وعداوةً للمسلمين، وذلك شأن كل منافق على مر العصور.

﴿٢٠٥﴾ ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴾

وإذا خرج من المجلس أو تولّى أمرًا من أمور الناس سعى في الإفساد وزرع الفتنة بين العباد التي تؤدي إلى إتلاف الزرع وقتل الأنفس وخراب الديار، والله يبغض كل مفسد شرير، وكل خبيث حقير، ويبغض الإفساد في الدين والدنيا؛ لأنه أمر بالإصلاح والعمار.

﴿٢٠٦﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾

إذا نُصح هذا المنافق أن يخاف الله حمله الكبر على زيادة الإثم والجرم عنادًا واستخفافًا، فليس له إلا نار جهنم تشويه، وهي كافية في التنكيل به خالدًا فيها، ولبئس القرار لمن أغضب الجبار.

﴿٢٠٧﴾ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾

أما صنف من الناس فمختلف عن هؤلاء المنافقين، فهم البررة الأخيار، من يبيع نفسه وماله لنصرة دينه، ويشتري رضوان الله وجنته، كما فعل صهيب الرومي الصحابي رضي الله عنه لما أعطى المشركين كل ما يملك وهاجر مع الرسول ﷺ إلى المدينة، والذي وفق هؤلاء لهذا العمل الجميل هو الله الجليل؛ لأنه رؤوف بعباده يدلهم على المسار من ألطف الطرق، ويجنبهم المضار بأحسن الحيل، ومن رأفته بهم توفيقهم لمرضاته.

﴿٢٠٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

أيها المؤمنون: ادخلوا في الإسلام واقبلوه بكل شرائعه وأحكامه وسننه، ولا تجزئوه فتأخذوا بعضه وتتركوا بعضه، وإياكم ومسالك الشيطان القبيحة وطرقه الخبيثة فابتعدوا عنها، فإن الشيطان عدو لكم يسعى فيما يضركم ويبعدكم عما يسركم، قد بانت عداوته وانكشف أمره، والعدو لا يُوَافق ولا يُرَافق.

﴿٢٠٩﴾ ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

فإن آثرتم الضلال على الهدى وانحرفتم عن الحق بعدما ظهر لكم البرهان وسطع البيان، على صدق الرسول وصحة الرسالة فاعلموا أن الله عزيز ينتقم ممن عصاه، حكيم لا يوقع العقاب بغير أهله، ومن عزته أنه قهر ما سواه، ومن حكمته أنه أحسن فيما قضاه.

﴿٢١٠﴾ ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾

وهل ينتظر هؤلاء المكذبون إلا يومًا يأتي فيه الواحد الأحد لفصل القضاء يوم الجزاء في ظلل رهيبة كثيفة من الغمام معه الملائكة الكرام، حينها قضي الأمر فلا توبة لتائب ولا عذر لمعتذر، ولا ينفع الكافر ندم ولا أسف، وإلى الله تعود مصائر الخلائق، وإليه تنتهي أعمال الجميع فيثيب المحسن ويعاقب المسيء، وإتيان الله يوم القيامة يحمل على حقيقته وظاهره بما يليق به سبحانه.

﴿٢١١﴾ ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

يا أيها الرسول: سل اليهود توبيخًا لهم وتقريعًا كم آتيناهم من معجزة باهرة، ومن آية متظاهرة، كنتق الجبل، وفَلْقِ الصخر والبحر، والعصا واليد، فكذبوا ونسوا وأعرضوا وعصوا، فمن يغير آيات الله بالكفر والتبديل، والتحريف

والتعطيل بعدما قامت عليه الحجة، ووضحت له المحجة، فإنه قوي الأخذ شديد البطش، عظيم العذاب لكل من عصاه، وخالف أمره واتبع هواه.

﴿٢١٢﴾ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

حُسِّنت الدنيا في عيون الكافرين فأحبوها وقدموها على الآخرة ورضوا بها وعملوا من أجلها، وسخروا من المؤمنين لتقديم الآخرة الباقية على الدنيا الفانية؛ لأن لسان الكافر يقول: خذ ما تراه لا ما تسمع به، ولكن النتيجة أن من اتقى ربه وأطاع مولاه فهو في المنازل العالية والدرجات الرفيعة والعيشة الهنيئة، أما الكفار الفجار ففي درك النار وبئس القرار، والرزق ليس علامة قبول العبد، فإن الله يرزق من يشاء مسلمًا أو كافرًا؛ لحكمة قدّرها ولمصلحة علمها، فلا يظن من زوي عنه الرزق أنه لكره الله له، ولا يظن من وسع عليه أنه لحب الله له، فقد يرزق الكافر ويحرم المؤمن قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾، قال الله مجيبًا عن الاثنين: ﴿كَلاَّ﴾ أي لا الأول رزقناه لمحبتنا له، ولا الثاني قدرنا عليه في رزقه لهوانه عندنا.

﴿٢١٣﴾ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

كان الناس قبل إشراكهم بربهم على فطرة التوحيد، ثم أغواهم الشيطان للإشراك بالله، فأرسل الرسل يدعونهم إلى الإيمان، ويبشرون الطائع بالثواب والعاصي بالعقاب، ولما أرسل الله الرسل أنزل معهم الكتب فيها البيان الشافي لأمور الدين؛ ليتحاكم إليه الناس وقت الاختلاف، ولم يخالف في القرآن إلا اليهود والنصارى من بعد ما جاءتهم الأدلة الصحيحة على صدقه حسدًا وبغيًا، فاختار الله للهداية عباده المؤمنين، فاتبعوا القرآن الذي كَذَّبَ به أهل الكتاب، وهذه الهداية توفيق منه - تعالى - لعباده المؤمنين للصراط المستقيم الموصل إلى جنات النعيم المبعد عن نار الجحيم.

﴿٢١٤﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾

لا تظنوا - أيها المؤمنون - أن دخول الجنة سهل دون ابتلاء واختبار، فما نجا من نجا قبلكم إلا بعد شدائد وأهوال من الجهاد والتضحية والمصائب، فقد ابتلاهم الله بالفقر فصبروا، وبالمرض فشكروا، ونزلت عليهم أهوال ومحن، فثبتوا إلى درجة أن الرسول وأتباعه منهم يقولون من شدة الخطب وهول الكرب: متى الفرج بعد الشدة؟ ومتى النصر بعد الذلة؟ فيا أيها المؤمنون: نصر الله قريب، وفرجه آتٍ، وفتحه حاصل، فلا تيأسوا من النصر، وعليكم بالصبر.

﴿٢١٥﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾

يستفتيك المؤمنون -أيها الرسول- ماذا يتصدقون؟ وعلى من يتصدقون؟ فقل لهم: أي صدقة منكم قلّت أو كثرت فالأولى بها القريب، ثم اليتيم، ثم الفقير. ثم الغريب المنقطع، واعلموا أن فعلكم للخير قليلاً أو كثيرًا محفوظٌ لكم عند الله، والله عالم به محصيه لكم، ويعلم المخلص فيه من المرائي، وسوف يُوفَّى كلٌّ بعمله.

﴿٢١٦﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

فرض عليكم جهاد الكفار أيها المؤمنون، والنفوس تكره القتال لما فيه من مشقة وألم ومخاطرة بالنفس والمال، ولكن كم من مكروه عاقبته محمودة، فالجهاد على مشقته له ثمار من العزة والكرامة والنصر والغنيمة والشهادة في سبيل الله، ويمكن أن تحبوا أمرًا من أمور الدنيا من الشهوات ومطالب النفس وترك الجهاد، فيثمر لكم الهوان والذل والخزي والعار وغضب الجبار، فكم من أمر كرهته النفوس وهو الفوز والرفعة والفلاح، وكم من شيء أحبته النفوس وهو الهلاك والخسارة والبوار، لأن العبد لا يعلم سر المسألة، ولا عاقبة الأمر ولا الحكمة الخفية؛ وإنما يعلمها علام الغيوب، فارضَ بقضائه، وسلم لاختياره، وافرح بتدبيره ففيه الحكمة والمصلحة.

﴿٢١٧﴾ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

يسألك الناس - يا محمد - عن القتال في الشهر الحرام أيَحلُّ أم يَحْرُمُ؟ فأجبهم بأن القتال فيه محرمٌ وإثمه عظيمٌ وجرمه شنيعٌ، فلا تقاتلوا فيه من لم يقاتلكم، ولكن مَنْعُ الناس من الإسلام ودعوتهم للكفر بالله وتدنيس المسجد الحرام وطرد الرسول والصحابة من مكة أعظم ذنبًا وأكثر إثمًا من قتلكم للكفار في الشهر الحرام، فإن كان قتلكم لهم في هذا الشهر عظيمًا فأعظم منه ما فعلوه بكم وبدين الله ورسوله وبيته؛ لأن رد المسلم عن دينه أعظم إثمًا من قتلكم لهم، وسوف يستمر الكفار يقاتلون المؤمنين حتى يردوهم عن الإسلام بما استطاعوا من جهد، فمن يترك دينه ويرغب في الكفر ويستمر على ذلك حتى الموت ضيّع الله سعيه. وأبطل أجره وأحبط عمله وخلّده في النار.

﴿٢١٨﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

إن المؤمنين المهاجرين المجاهدين مستحقون لرحمة الله، وسوف يحصلون على ما أملوا، ويجدون ثمرة ما عملوا، فبإيمانهم أرضوا القهار، وبهجرتهم فارقوا الدار وبجهادهم قاتلوا الكفار، فاستحقوا رحمة الغفار؛ لأنه واسع العطاء يتجاوز عن الأخطاء.

﴿٢١٩﴾ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

يستفتونك -يا محمد- عن حكم شرب الخمر ولعب القمار، قل: فيهما ذنب كبير وضرر كثير، ولو أن فيهما ربحًا ماديًا قليلاً ولكنه لا يساوي ما فيهما من شَرٍّ خطر، وإثم عظيم، فإثم من شرب المسكر ولعب القمار يشمل ذهاب العقل وقد يصل إلى إزهاق الروح، وسفك الدم، وخراب البيوت، وذهاب الأسر، وهتك الأعراض وغيرها.

ويستفتونك - أيضًا - ماذا يتصدقون؟ وماذا يمسكون من أموالهم؟ فقل لهم: أنفقوا الميسور وتصدقوا بما زاد عن حاجتكم، فكما هداكم الله فقد وضّح لكم ما يحل و ما يحرم، وما يجوز وما لا يجوز، وما ينفع وما يضر، فتدبروا أموركم، وتفقّهوا في دينكم لتسعدوا وتفلحوا.

﴿٢٢٠﴾ ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

بيّن الله لكم الآيات لتتفكروا في مسائل الدنيا والآخرة وتختاروا الأجمل والأكمل وتنظروا في حال الدنيا وفنائها، وزوال أبنائها، ونعيم الآخرة وبقائها وحسن بهائها.

ويستفتونك في مخالطة اليتامى والأكل من أموالهم، فأجبهم أن من خالطهم وأصلح وسدد وقارب ونصح لهم فهو أحسن ممن اجتنبهم، وإن جمعتم مالكم مع مالهم ليعظم الربح وتقل الخسارة وقامت بينكم شراكة للمنفعة فأنتم إخوان في الدّين، بعضكم ولي بعض، ينصح له ويحرص عليه، والله يطلع على من أراد الفساد وسعى إليه ممن اجتهد في الخير واتقى ربه في حال الشراكة والخلطة مع اليتامى، ولو أراد الله أن يعسِّر عليكم لحرم عليكم مخالطة اليتامى، ولكنه سهّل عليكم ولم يكلفكم ما لا تطيقون؛ لأنه عزيز يحكم ما أراد بقوة ونفاذ، حكيم يقضي بما فيه حكمة ويقدر ما فيه رحمة.

﴿٢٢١﴾ ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

لا تتزوجوا المشركات حتى يُسلِمن، فإن الجارية المملوكة المسلمة أفضل من الحرة المشركة ولو أعجبكم جمال المشركة، فجمال الباطن أحسن وأفضل من جمال الظاهر، ولا تُزَوِّجوا بناتكم من المشركين حتى يُسلِموا، فإن المملوك الرقيق المسلم أفضل من المشرك ولو أعجبتك صورته أو أقواله، فالمسلم أبر وأطهر وأكرم؛ لأن هؤلاء المشركين دعاة إلى الكفر الموصل إلى نار جهنم، والله يدلّكم على ما يسعدكم في الدنيا ويوصلكم إلى الفوز بجنته في الآخرة، فهو الذي يقبل الحسنات ويتجاوز عن السيئات، ومن اهتدى فبتوفيقه له، والله يوضح الأدلة لعباده، ويقيم البراهين للخلق لكي يبصروا الهدى من الضلال والحق من الباطل، فيختاروا الأحسن والأصوب.

﴿٢٢٢﴾ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

ويستفتونك -يا محمد- عن جماع الحائض أحلال أم حرام؟ فقل لهم: هو حرام؛ لأن دم الحيض مستقذر مؤذ، فابتعدوا عن جماع الحائض حتى تطهر، فإذا طهرت من الحيض وتطهرت بالماء فجامعوها في الفرج؛ لأنه المأذون فيه شرعًا، فهو - سبحانه - يحب التائب من الأوزار، والمتطهر من الأقذار؛ لأن الذنب دنس على النفس، والقذر رجس على الجسم ونجس، فطهارة الأرواح والأجسام بترك الأقذار والآثام.

﴿٢٢٣﴾ ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

زوجاتكم موضع إنجاب أولادكم فجامعوهن على أي هيئة بحيث يكون الجماع في القبل، واحرصوا على فعل الخير لأنفسكم في الآخرة ولو في الجماع بحسن النية في الذريّة وإعفاف النفس، والمرأة لا لمجرد الشهوة البهيمية، وعليكم بتقوى الله في اجتناب ما نهاكم عنه مثل: جماع الحائض والجماع في الدبر، وتيقنوا أنكم سوف تلقون ربكم يوم العرض الأكبر ليحاسبكم على أعمالكم، فلا تلقوه بما تفتضحون به، فالبشرى لمن آمن بجنات ونهر وحسن مستقر، وما أجمل ربط الأحكام بتقوى الملك العلام.

﴿٢٢٤﴾ ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

لا تجعلوا الحَلِفَ بالله سببًا لمنع الخير كأن تحلف ألا تفعل خيرًا، فإن طُلب منك أن تفعله قلت: قد حلفت بالله فلن أترك يميني فكأن الله مانع لك من فعل الخير، بل كفِّر وافعل الخير من عمل طاعة واجتناب معصية وإصلاح بين المتخاصمين؛ لأن الله يسمع الأقوال، ويعلم الأعمال، ويطلع على الأحوال، فهو أحق أن يُتقى ويخاف.

﴿٢٢٥﴾ ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

لا يعاقبكم الله بما يجري على اللسان من أيمان دون نية منكم، كقولكم: لا والله، وبلى والله، وإنما العقاب على من قصد الكذب؛ لأن الأعمال بالنيات، والله كثير العفو عظيم التجاوز واسع الرحمة يتوب على من تاب ويقبل من أناب ويتجاوز عن المسيء.

﴿٢٢٦﴾ ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

من حلف ألا يجامع زوجته هجرًا لها وإضرارًا بها فله مدة أربعة أشهر ليراجع نفسه ويتوب إلى ربه من إيذاء زوجته، والله يغفر له إذا عاد، ويسامحه إذا كفّر ورجع إلى زوجته، وانظر إلى لطف الله بالمرأة ورحمته بها.

﴿٢٢٧﴾ ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

لكن لو استمر الزوج على حلفه وهجر زوجته فعليه أن يطلقها لرفع الضرر عنها، أو طَلَّقَها الوالي فلا ضرر ولا ضرار؛ لأن الحياة الزوجية مبنية على الألفة وحسن العشرة، فإذا لم توجد انتهى الغرض، والله يسمع كل قول ونجوى، ويعلم السر وأخفى، فحق على العبد أن يخشاه.

﴿٢٢٨﴾ ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

والمرأة المطلقة تنتظر ثلاث حيَض من بعد طلاقها استبراءً للرحم، وهي عدتها إذا دخل بها زوجها، ثم يجوز لها بعد الحيض الثلاث أن تتزوج، ولا يجوز لها أن تخفي الحمل وتجحده لئلا تعود إلى زوجها، وحبًّا في الفراق وإنهاء للعدة، هذا إذا كانت تخاف ربها وتخشاه وتحذر الحساب بين يديه يوم العرض الأكبر، فلن يمتثل الأحكام الشرعية إلا المتقي ولا يخالفها إلا شقي، وللزوج الحق في إرجاع الزوجة ما لم تنته العدة؛ لأنها ما زالت تحت عصمته وفي ولايته، إن كان يريد حسن العشرة معها وعدم إدخال المشقة عليها، وللزوجة من الحق كحسن العشرة والرحمة بها والنفقة عليها مثل ما للزوج عليها من لطيف المعاملة وطيب العشرة وعدم الخيانة، وللأزواج على الزوجات ميزة وخاصيّة بسبب الإنفاق والولاية والقوامة مع حسن المعاشرة، ولا يقتضي هذا أن يكون خيرًا منها، فالفضل للتقوى، والله عزيز ينتقم ممن تعدى حدوده من الزوجين وغيرهما، حكيم يضع كل شيء بحكمة في موضعه، ومن ذلك أحكام الزوجية.

﴿٢٢٩﴾ ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

الطلاق الصحيح الذي يحل للرجل به مراجعة زوجته طلقتان، واحدة بعد الأخرى، فإما أن يراجعها بمعروف، وإما أن يطلقها بلا ظلم ولا عدوان، وبعد أن تصير منه بائنًا لا حق له في المراجعة، فالمراجعة لحسن العشرة، والفراق مع أداء الحق، ولا يجوز للرجل أن يأخذ من مهر زوجته شيئًا إذا فارقها إلا بالخلع إذا تأكدتم أنه لا يمكن الصلح، وأن يقع الضرر كظلم الزوج وسوء معاشرة الزوجة، فيجوز الخلع على شيء من المهر، فإن تيقنتم أنه لا يمكن توافق الزوجين وانتفت المصلحة من المراجعة جاز للمرأة أن تفتدي نفسها من زوجها ببعض مهرها ليفارقها لتحققِ الضرر من الرجوع إليه، وهذه المسائل فيما شرعه الله وسنّه فاحذروا تجاوزها والتساهل بها ومخالفتها؛ لأن من عصى الله بارتكابه المحذور فقد أغضب ربه، وظلم نفسه، وتجاوز الحد، ووقع في الحرام؛ وهذا ظلم.

﴿٢٣٠﴾ ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

فإن طلقها الطلقة الثالثة بانت منه وحرمت عليه حتى تتزوج زوجًا آخر ويجامعها، لا على وجه الحيلة والتحليل، وهذا تعزير له وتأنيب وردع له وتأديب، لئلا يتلاعب بالطلاق ويعبث بالرجعة والفراق، فإن طلقها زوجها الثاني واعتدَّت جاز لزوجها الأول أن يتزوجها بعقد جديد، ومهر آخر إذا علم الزوج والزوجة أنهما سيقومان بأوامر الله ويجتنبان

نواهيه، والله إنما يوضح الأحكام لأهل البصائر وأصحاب الأفهام الصحيحة الذين يفقهون في الدين، أما المعرضون الجهال فلا فهم لديهم ولا بصيرة.

﴿٢٣١﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

وإذا طلقتم النساء دون الثلاث وهن في الرجعة، فراجعوهن إذا أردتم قبل انقضاء العدة دون أن تسيئوا عشرتهن، بل عاشروهن برحمة ولطف، أو تمهلوا حتى تنقضي عدتهن ليصبحن بائنات مع متاع حسن وعدم ذكرهن بالسوء، ولا تراجعوا النساء من أجل الانتقام والإساءة حتى تبذل المرأة مهرها لتفتدي نفسها، ومن يراجعها ليؤذيها أو ليأخذ من مهرها فقد جار وتعدى وظلم، والله له بالمرصاد، ولا تتلاعبوا -أيها الناس- بأحكام الله فتأخذوا ما تريدون وتتركوا ما تريدون تشهّيًا، وتذكَّروا فضل الله عليكم بالقرآن وبمحمد ﷺ لتتعلموا ما ينفعكم، وكنتم قبله جهلاء ضلالاً، فهذا الوحي لهدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه فلاحكم وفوزكم، فخافوا ربكم وأطيعوا بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه؛ لأنه -سبحانه- عليم بالأعمال مطلع على الأحوال لا تخفى عليه خافية وسوف يحاسبكم عن القليل والكثير.

﴿٢٣٢﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

وإذا طلق الأزواج زوجاتهم ثم انقضت العدة ورغب الرجل أن يراجع المرأة برضىً منهما واختيار فعلى الولي أن لا يمنع ذلك؛ لأن المرأة سوف تُحرَم الحياة الزوجية بمنع الولي، وهذا هو التزام أمر الله واتباع شرعه إنما يفعله من رضي بالله ربًّا وخاف لقاءه، وخشي عقوبته، وهذا العمل من المراجعة بالمعروف، واتقاء الزوجين لله وعدم منع الولي، أزكى للقلوب لبعدها عن الآثام، وأطهر للأجسام لاجتنابها الحرام؛ لأنها فعلت المأمور وتركت المحذور؛ لأن الله أعلم بمصالح العباد، وما فيه خيرهم وعواقب أمورهم وأسرار أحوالهم ما لا يعلمونه؛ لأنهم بشر استولى عليهم النقص وغلب عليهم الضعف ولزمتهم الغفلة.

﴿٢٣٣﴾ ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

على الأمهات أن يرضعن أولادهن سنتين كاملتين إذا أراد الوالدان ذلك برضا واختيار، وإنما ذكر الوالدات للاستعطاف وعدم إهمال الطفل والاستخفاف به، ووالد الطفل تلزمه نفقة والدة طفله وكسوتها بما هو معروف بلا تبذير ولا تقتير، بقدر حالة الغني والفقير، وقال: وعلى المولود له ولم يقل الوالد؛ لأن الطفل ينسب إليه لا إلى أمه، ولا يجوز أن يقع الضرر على هذا الطفل بسبب الفراق، فلا ترضعه أمه نكاية في أبيه، أو يأخذ الوالد الطفل فيَحرِمه حنان أمه، فيضره ويضرها، والضحية بسبب هذا الشقاق هو الطفل، فحمى الله جانب الطفل، فتبارك الحكيم الرحيم ما أعدله وأرحمه، وأورث الطفل من جد وعم وأخ يقوم مقام الوالد في الإنفاق على والدة الطفل من طعام وسكن إذا مات الوالد، وإذا اتفق والد الطفل ووالدته على فطم الطفل قبل مضي السنتين فلا بأس بذلك بشرط أن يكون عن رضا لا خلاف معه من الطرفين وتشاور في مصلحة الطفل.

وإذا رغب الوالد في مرضعة غير أم الولد ورأى المصلحة في ذلك فلا إثم عليه إذا كانت أم الطفل عاجزة أو رافضة، أو لا تصلح لسبب وجيه، فسلموا أجرة المرضعة بلا نقص ولا مطل، بل أجرة المثل. وانظر إلى هذا الإنصاف والعدل،

وعلى الجميع أن يتقوا الله، فالوالد عليه ألا يضر بالطفل أو والدته، ولا يبخس المرضعة الأخرى أجرتها، والوالدة لا تضر بطفلها ولا تنتقم من أبيه بترك رضاعته، وعلى المرضعة حسن الرضاعة وجميل معاملة الطفل؛ لأن الله مطلع على كل عمل قائم على كل نفس عالم بكل سر، فخافوه وراقبوه وامتثلوا شرعه.

﴿٢٣٤﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

ومن مات منكم وله زوجة أو زوجات فعليهن البقاء في بيوتهن مدة أربعة أشهر وعشر ليالٍ حدادًا على الأزواج، إلا الحامل فعدتها حتى تضع الحمل، لتُحفظَ الأنسابُ، وتُصانَ الأحسابُ، ويُحترمَ حقُّ الزوج، فإذا انتهت العدة جاز لها الزواج ومقدماته من التجمل والتزين إذا كان في حدود الشرع، والله - سبحانه - لا تخفى عليه الخوافي، فيعلم عمل البار والفاجر، وسيجزي كلاً بما فعل فراقبوه رجالاً ونساءً، فإنه محاسبكم.

﴿٢٣٥﴾ ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَّلِيمٌ ﴾

ليس عليكم إثم إذا عرضتم للمرأة المعتدة بالزواج تلميحًا لا تصريحًا يُفهم منه الرغبة في نكاحها، ولا ذنب في إسراركم بهذه الرغبة في نفوسكم لئلا يتوهم الإثم من حب الزواج من المعتدة، فلا تخفوا وعدكم لهن بالنكاح في السر فإنه يعلم السر وأخفى، ولكن لمِّحوا ولا تصرحوا؛ لأنه لا يحق الدخول في مسألة النكاح إلا بعد انتهاء العدة، ولا يحل لكم عقد النكاح إلا بعد انتهاء العدة، واعلموا علم اليقين أن الله مطلع على أسراركم، خبير بنياتكم، عليم بأفعالكم، فاحذروا غضبه واخشوا عقابه، وهو مع قدرته على العقاب وشدة أخذه في العذاب فهو يغفر لمن تاب ويرحم من أناب، فكونوا بين رجاء رحمته وخوف نقمته.

﴿٢٣٦﴾ ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

إذا طلقتم النساء قبل الجماع ولم تُسَمُّوا لهن مهرًا فليس لهن إلا المتعة، وإن سميتم لهن مهرًا ثم طلقتموهن قبل الجماع فلهن نصف المهر، وعند الطلاق متعوهن قبل الفراق؛ ليذهب ما في نفوسهن من عتب، ويزول ما يحصل بعد الطلاق من غضب، والمتعة على قدر الغنى والفقر، يفعل ذاك المتقي المحسن الذي يحب أن يتفضل، وهذه المتعة شيء من المال والمتاع شرعه الله على أهل الكرم ليمحو ما أصاب المطلقة من ندم.

﴿٢٣٧﴾ ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وإذا كان الطلاق قبل الدخول وقد سمى الزوج لها مهرًا فعليه إذا طلقها أن يدفع لها نصف المهر إلا إذا سامحته المطلقة ولم تطالبه بشيء، أو سامحها الزوج في نصف المهر بعدما دفع لها المهر كله أو سامح وليها إذا تبرع بإرضائها، فالمسامحة هنا من كل الأطراف أحسن؛ لأنها تدل على كرم النفس ولين الطباع وجميل الخُلُق، وهذا أقرب لما يحبه الله، فإنه عفو يحب العفو، كريم يحب أهل الكرم، ولا تتركوا -أيها الأزواج- الإحسان بينكم حتى بعد الفراق من حفظ العهد وكتم السر والصلة بالمعروف بالمال وغيره لمن احتاج إليه منكم، فقبل الفراق كان بينكم معروف وإحسان، فليستمر قدر المستطاع، فالله - سبحانه - يعلم إحسان المحسن، وإساءة المسيء وسوف يوفي كلاً بعمله.

﴿٢٣٨﴾ ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾

حافظوا على الصلوات الخمس في أوقاتها بخشوعها وآدابها ولا تشغلكم الدنيا عنها، فالمحافظة أعظم من مجرد أدائها؛ لأن الصلاة عماد الدين، وقرة عيون الموحدين، وعلامة صدق العابدين، وحافظوا على صلاة العصر؛ لأن الملائكة تشهدها، ثم إنها تقع في وقت تعب بعد عمل وقيلولة وبرد في الشتاء، واخشعوا في صلاتكم وداوموا على طاعة ربكم.

﴿٢٣٩﴾ ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾

لا تتركوا الصلاة على أي حال ولو كنتم في حال خوف من الكفار، فصلوا ماشين أو راكبين، فإذا ذهب القتال واستقر الحال فصلوا صلاة وافية الشروط والأركان، مع كثرة ذكر للرحمن، مثلما علمكم ربكم في كتابه وسنة رسوله ﷺ وشكرًا له على هذا العلم. وكنتم قبل الرسالة في ضلالة، وقبل العلم في جهالة.

﴿٢٤٠﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

قبل أن يموت الزوج عليه أن يوصي لزوجته بعد وفاته متاعًا يكفيها لسنة كاملة يشمل النفقة والسكن، ولا تخرج الزوجة من سكنها عدة مدة هذه السنة، وكان هذا عدة المتوفى عنها زوجها ثم نُسخت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، فانظر كيف حفظ الحقوق وسن الحدود - سبحانه - فإذا خرجت الزوجة من منزل زوجها المتوفَّى عنها بعد العدة فلا حرج على الولي أن يأذن لها بالزينة والتجمل والطيب لتخطب في حدود ما شرعه الله؛ لأنه عزَّ فأمر، وحكم فعدل، فمن عزته أوامره ونواهيه، ومن حكمته تنزيله لكل حكم ما يقتضيه.

﴿٢٤١﴾ ﴿ وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾

وللمطلقة على زوجها حق وهو أن يمتعها بقدر استطاعته ليجبر الخاطر ويزيل ما كدرها من فاجعة الطلاق ووحشة الفراق، وهذا يفعله من اتقى ربه وراقب مولاه ففعل ما يرضيه.

﴿٢٤٢﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

وهذه الأحكام بيانها من الله، فهو المشرع - سبحانه - فالحكم لله وحده، فعليه البيان وعلى الرسول البلاغ وعليكم العمل، وقد شرع الشرائع كي تتدبروها وتتفقهوا في أحكامها لتعقلوا الحكمة، فالبيان علم، والتدبر عقل، فجمع هنا بين المنقول والمعقول.

﴿٢٤٣﴾ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾

ألم تأتك قصة قوم هربوا من أوطانهم، وتركوا ديارهم - وهم كثيرون في عددهم - خشية الموت والموت لا مهرب منه ولا مصد عنه، فإنه يأخذ من استقر ويلحق من فرَّ، فأماتهم الله بكلمة ثم أحياهم بكلمة؛ ليقيم الدليل على أنه الرب القدير الجليل، قيل: إنهم من اليهود كتب عليهم الجهاد فهربوا فأدركهم الموت، ثم بُعثوا، فيا من فرّ من الجهاد، لا مهرب من الموت ولا راد، والله - سبحانه - لم يكلف الناس ما يشق عليهم حتى يفروا من القضاء، فإن شرعه رحمة، وقضاءه حكمة، وعطاءه فضل، وأخذه عدل، وتجاوزه إحسان، لأنه رحيم رحمن، ولكن أكثر الناس لا يشكر ربَّه بامتثال أوامره وهجر نواهيه، فجبِلَّة الجحود في الناس كامنة، وصفة النكران في نفوسهم ساكنة.

﴿٢٤٤﴾ ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

فلا تكونوا - أيها المؤمنون - كمن فرّ من القتال ورفض الجهاد بل جاهدوا لإعلاء كلمة الله، فلكم النصر والأجر والعزة والشهادة والفوز والفلاح، فالله يعلم من جاهد مخلصًا لربه، ومن قاتل رياءً وسمعة؛ لأنه يسمع الأصوات، ويعلم النيّات، ويطّلع على الخفيّات.

﴿٢٤٥﴾ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

أيُّكم السابق لبذل ماله لمرضاة ربه ونصرة دينه، فماله لن يذهب بل هو قرض مضاعف، وحسنات وافرة، الحسنة بعشر إلى سبع مائة إلى ما شاء الله، فالمعطي حقيقة هو الله، وأموالكم من عنده سبحانه؛ لأنه يقلل رزق من يشاء، ويكثر عطاء من يريد لحكمة يعلمها، فمن قلّ رزقه فلينفق على حسبه، ومن كثر فليعط على كثرته، وسوف تعودون إليه يوم القيامة؛ فيثيب الجواد المنفق، ويعاقب البخيل الممسك.

﴿٢٤٦﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

ألم يَصِلْك خبر قوم من اليهود قالوا بعد موت موسى للنبي شمعون: نريد قائدًا يقودنا لنقاتل الكفار معه في سبيل الله، فقال لهم: أخْشى إن أوجب الله عليكم الجهاد عصيتم وتركتم القتال، فلا تتمنوا لقاء العدو، ولا تستعجلوا البلاء، فردّوا عليه، وقالوا: كيف لا نجاهد ونحن مظلومون شُرِّدنا من الوطن، وسلبت أموالنا، وفرّق بيننا وبين أولادنا؛ فنحن نريد الانتقام ممن فعل ذلك. فلما أوجب الله عليهم الجهاد تركوه وخافوا الأعداء وما صبر منهم إلا نفرٌ قليل، وهم الذين عبروا النهر مع طالوت، والله عالم بالظالم منهم الذي نكث ما عاهد الله عليه، ونقض ما التزمه من جهاد في سبيل الله، فلما وقعت الحرب ضعفوا وانهزموا وهذا مخالفة لأمر الله، فهم سألوا ما لم يجب، فلما وجب ما وسعهم إلا الهرب.

﴿٢٤٧﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾

وقال لهم نبيّهم شمعون: إن الله قد اختار لكم قائدًا هو طالوت، فاعترضوا وقالوا: كيف تكون القيادة والملك لطالوت؛ وهو فقير والملك يحتاج إلى مال، فبالمال يطوّع الرجال ويُقام القتال، والمال عندنا، فنحن أولى بالملك منه لغنانا وفقره، فردّ عليهم نبيهم وقال: حصل الاختيار من الله وهو أعلم بالحِكَم والمصالح وعواقب الأمور، وطالوت معه سعة علم وقوة جسم، فبالعلم يسوس الناس، وبالجسم يخوض البأس، فصاحب العلم قويّ النفس، وصاحب الجسم قويّ البطش، وهذا أكمل للهيبة والسلطان. والله وحده يُملّك من يشاء من عباده؛ لأنه ملَّك الملوك وهو أعلم بمن يصلح للملك فيختاره، فليس لأحد أن يعترض؛ لأن الله واسع الفضل كثير الإحسان عليم بخفايا الأمور وأسرار القضايا، فهو يهب عن سعة، ويختار عن علم.

﴿٢٤٨﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

وقال لهم نبيّهم شمعون: إن علامة اختيار الله لطالوت ليكون ملكًا عليكم، أن يحضر الصندوق الذي فيه الطمأنينة من الله لكم، وفيه بقايا آثار موسى وهارون كالعصا والثياب وبعض التوراة، تأتي به الملائكة حتى تضعه بين يدي طالوت إثباتًا لملكه، ونزول التابوت إلى طالوت علامةٌ ظاهرة على اختيار الله له من بينكم إن كنتم تصدقون بآيات الله.

﴿٢٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

فلما خرج طالوت من المدينة بالجيش وأصبح في الصحراء لا ظل ولا ماء بل حر ورمضاء؛ ابتلاهم الله بنهر عذبٍ باردٍ وهم في ظمأ شديد؛ ليمتحن صبرهم، وحذّرهم طالوت بأن من شرب من الماء فليس من جنده؛ لأنه لن يصبر، ولن يثبت في المعركة، ومن لم يشرب فهو معه، وأذن لهم بقليل من الماء ملء الكف لكل واحد منهم، فأكثروا من الشرب إلا نفرًا قليلاً صبروا، فلما خرج من النهر هو ومن معه من المؤمنين وشاهدوا جيش العدو دبَّ الخوف في قلوبهم؛ لكثرة الكفار وقالوا: لا نستطيع المواجهة فعددنا قليل وعددهم كثير، فردّ عليهم الصادقون الصابرون: بأن النصر مع الصبر، والطائفة القليلة المؤمنة تغلب الطائفة الكثيرة الكافرة؛ لأن من كان الله معه لن يُغلب، فالله يؤيد من صبر بنصره ويُنزل السكينة على جنده.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

ولما التقوا بجيش عدوهم جالوت سألوا الله أن يمدهم بصبر في قلوبهم لئلاَّ يجزعوا، وبثبات أقدامهم لئلاَّ يفروا، وبنصرهم لئلاَّ يُهزموا، فالصبر يدفع الجبن، والثبات يمنع القلق، والنصر يحمي من الخذلان، وطلبوا الغلبة على الكافرين؛ لأن جهادهم من أجل رفع الدين ونصرة رب العالمين.

﴿٢٥١﴾ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

فغلب جيش طالوت جيش جالوت بنصر من الله وحده، وقتل داود جالوت، فأعطاه الله كرامة الملك يسوس به الناس، والنبوّة يهدي بها العباد، والعلم يفقّه به الخلق، فالملك صلاح الدنيا، والنبوة صلاح الدّين، والعلم صلاح النفس، ولولا أن الله يدفع شر الكفار بقوة الأبرار لَتَسَلَّطَ الأشرار، وعمّ الفساد في الكون، وخربت الدنيا، ولكن الله لطيفٌ بالبشر، ينصر الحق وأهله على الباطل وحزبه؛ ليبقى الخير ويستقيم أمر الناس، وتعمر الديار وينتشر الصلاح.

﴿٢٥٢﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

هذه الأخبار - يا محمد - صادقة من عند الله أنزلها الله بالحق وحيًا يُتلى عليك؛ لأنك رسول من عند الله كما أرسل الأنبياء قبلك، فما أوحيناه إليك فهو للبلاغ لأنّا أكرمناك بالرسالة.

﴿٢٥٣﴾ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾

والذي قصصنا عليك أخبارهم من الأنبياء هم رسل من عند الله متفاوتون في الدرجات متباينون في الفضل، منهم من خصّه الله تكريمًا بأن كلّمه كموسى، ومنهم من جعله من أُولي العزم كنوح وإبراهيم، ومنهم من فضّله على الجميع وختم به الكل وهو محمد ﷺ، أما عيسى فقد أعطيناه معجزات باهرة، وعلامات ظاهرة، فهو يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ويَشْفِي المرضى بإذن الله، وجعلنا جبريل يعينه ويساعده على مهام الرسالة وتكاليف الدعوة.

ولو أراد الله ما تقاتل الناس بعد ما جاء الأنبياء بالرسالات والدلالات والحكم والعظات، ولكن لما اختلفوا في متابعة المرسلين سلّط المؤمنين على الكافرين لينصر الدين، ولو أراد الله لجمعهم على كلمة واحدة وما حصل بينهم خلاف ولا قتال، ولكن لمصلحة أرادها الله وحكمة علمها، قدّر الخلاف بينهم والقتال؛ ليتميز أولياؤه من أعدائه، ويقوم سوق

الجهاد ويتخذ الشهداء، ويظهر أهل الجنة من أهل النار، فله - سبحانه - الحكمة المطلقة والقدرة النافذة، حكيم في قضائه، رحيم في بلائه.

﴿٢٥٤﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

أيها المؤمنون، تصدقوا من فضل الله في سبيل الله وأنتم على قيد الحياة، قبل أن تسلب منكم الأرواح وتلقون ربكم يوم العرض الأكبر، فلا بيع تُفدى به النفس بالمال، ولا مودة صديق تنفع، ولا شفاعة صاحب تدفع؛ لأن الكافر ظلم نفسه بمحاربة ربه، فلا يقبل منه الفداء ولا مودة الأصدقاء ولا شفاعة الأولياء.

﴿٢٥٥﴾ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

الله وحده لا إله إلا هو المستحق للألوهية، المستأهل للعبودية؛ لأن له الحياة المطلقة الكاملة التامة، وهو دائم باق لا يموت ولا يفنى، قائم على تدبير الخليقة وتصريف الكون، به تقوم حياة كل حي، لا يأخذه النعاس ولا النوم؛ لكمال حياته وقيّوميته؛ لأن النعاس والنوم نقص، والله منزه عن النقص، وهو - سبحانه - يمسك السموات والأرض أن تزولا، فلا ينام وليس بحاجة إلى النوم - جل في علاه - لأنه لا يدركه تعب ولا لغوب، تقدّس علام الغيوب؛ ولأن من نام يموت والله لا يموت، والجن والأنس يموتون، فجميع ما في الكون ملكه تحت تصرفه ومشيئته، مقهورون تحت سلطانه، خاضعون لعظمته، أذلاء لقوته، خائفون من بطشه، فالخلق عبيده والملائكة جنده، ولجلاله وعظيم مهابته وملكه لا يشفع أحد لأحد إلا إذا أذن للشافع ورضي عن المشفوع؛ لأنه صاحب الكبرياء، تنزه عن الشركاء، وهو - سبحانه - مطلع على ما يراه البشر في الدنيا وما لا يرونه من أمور الغيبيّات في الآخرة، أحاط بالمنظور والمستور، وعلم الظاهر والباطن، واطلع على السر والجهر، ولا يعلم أحد من علمه - سبحانه - إلا من أطلعه عليه، لا ملك مقرّب ولا نبي مرسل، ولا ولي صدِّيق، ولا أحد من الجن والإنس؛ لأن علمه واسع محيط شامل، وعلمهم ضيق مقصور محدود؛ لأنه خَلَقَ علْمَهم وعَمَلَهم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ومن عظمته - سبحانه - أن كرسيّه أعظم من السموات والأرض، والعرش أعظم منه، والكرسي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في صحراء واسعة لا يعلم سعتها إلا الله، فإذا كانت هذه السموات والأرض باتساعها وعظمتها، والكرسي أعظم وأكبر منها فكيف بعرشه العظيم، فسبحان من استوى على عرشه استواء يليق بجلاله، ليس في ذاته شيء من مخلوقاته ولا صفاته تشبه الصفات، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ والله - سبحانه - لا يثقله حفظ السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات، بل يحفظها من كل الآفات، وتدعوه كل المخلوقات بشتى اللغات، ومختلف اللهجات، وتعدد الأصوات، وبجميع الحاجات، فيفيض جوده على كل الكائنات، وهو عليٌّ - سبحانه - علو ذات وقدر وقهر، فهو عالٍ فوق السموات على عرشه، وقدره أعلى قدر؛ لأنه صاحب النهي والأمر، يعلم السر والجهر، وبيده النفع والضر، وقد قهر سواه فلا رب ولا إله إلا إياه، تفرد بالملك وتوحّد بالألوهية واستحق العبوديَّة، فهو العلي العظيم؛ لأن العلو مع العظمة يقتضي قوة الجبروت، وتمام الملكوت، وكمال العزة، ونهاية الجلال والقداسة، وهذه الآية أعظم آية في القرآن، وفيها من المدح والتقديس والتعظيم للملك الكريم، الرحمن الرحيم ما يخترق حجب الضمير إلى شغاف القلب، ويهز أركان الكون بالثناء على الملك الحق المبين.

﴿٢٥٦﴾ ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

لا تجبروا أحدًا على الدخول في الإسلام، بل عليكم بدعوته بالإقناع وحواره بالتي هي أحسن؛ لأن الأمر بيّن ظاهر، فقد وضح الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر، فمن وحّد الديَّان وكفر بما يعبدون من دونه من إنس وجان

وشيطان وأوثان فقد التزم حبل الإيمان، وعروة الدين قوية لا انقطاع لها؛ لأنها مَوْصُولَةٌ بالله وفيها كل أسباب النجاة، والله مطلع على النيات الخفيات، يسمع الأصوات ويعلم الأحوال والأعمال، فحقه أن يوحّد ويُعبد، وإليه يسعى ويحفد، وله يعظم ويسجد.

﴿٢٥٧﴾ ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

والله وحده ولي المؤمنين يحفظهم ويرعاهم، ويهديهم ويسددهم، ويعزهم وينصرهم، وهو الذي أنقذهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وأنجاهم من الضلال إلى الهدى، وسلّمهم من مهالك الشبهات وأخطار الشهوات بالآيات البيّنات، ودلهم على أسلم طريق بالرشد والتوفيق، أما الكفار الفجار فأولياؤهم الشياطين يخرجونهم من الهداية إلى الغواية، ويردّونهم من الهدى إلى الرّدى، ويمنعونهم من الإسلام، ويدعونهم إلى عبادة الأصنام، فهؤلاء الكفار خالدون مخلدون في النار فبئس القرار.

﴿٢٥٨﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

ألا تتعجب من النمرود بن كنعان صاحب الكفر والطغيان، فإنه جادل إبراهيم، في الرحمن الرحيم، ولم يعلم أن وجود الله ووحدانيته أمر معلوم، شهدت به الفطر السليمة والنفوس المستقيمة، وقامت عليه البيّنات بما أوجد من مخلوقات وأقام من آيات، والله – سبحانه – هو الذي أعطى هذا – المخاصم – النمرود الملك فانظر كيف جحد وألحد، فلما دعاه إبراهيم بيّن له أن ربه – جل في علاه – يوجد من العدم ويُنشئ الخلق ثم يميتهم ويفنيهم، فهو خالق الموت والحياة، والوجود والعدم، والبقاء والفناء، لا غيره ولا سواه، فكان جواب هذا الرعديد العنيد، الغبي البليد: وأنا أيضًا أحيي وأميت، فأتى برجلين مسجونين عنده فعفا عن أحدهما وقتل الآخر، وقال: هذا إحياء وإماتة!! فلما عرف إبراهيم جهالة هذا السفيه وتعلقه بالشبه والتمويه، أتى ببرهان ساطع ودليل قاطع، لا يتعلق فيه المشكِّك فقال إبراهيم: دعنا مما تقول، ولكن هذه الشمس في السماء ظاهرة للعيان جلية للأبصار، كل يوم يأتي بها ربي من جهة المشرق فاجعلها أنت تطلع علينا من المغرب ولو يومًا واحدًا لنصدق كلامك!!! فانقطع الغبي الفاجر، وبُهت الشقي الكافر؛ لأن إبراهيم أفحمه بالحجة وقصم ظهره بالبرهان، وهكذا شأن كل ظالم فاجر لا يهديه الله إلى صواب ولا يوفقه للسداد في الجواب.

﴿٢٥٩﴾ ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أو اعجب من قصة صاحب القرية فإنها تثير العجب، فإن عزيرًا مرَّ بقرية مات أهلها وخرب بناؤها، وذَوَتْ أشجارها فلا حياة فيها لشيء، بعدما كانت عامرةً بسكانها، آهلة بأهلها، فوقف متحيّرًا وتساءل: كيف يعيد الله الحياة لهذه القرية بعد هذا الفناء العظيم والدمار الكبير، فأراد الله أن يريه قدرته على الإحياء فأماته وأمات حماره مدة مئة عام، ثم أحياه بعد الموت وسأله: كم مرَّ عليك وأنت ميت؟ فأجاب: مرَّ عليّ يوم أو بعض يوم؛ لأنه بُعث قبل غياب الشمس فظن أنه اليوم نفسه، قال له ربّه: بل بقيت ميتًا مئة عام، فشاهد طعامك الذي كان معك على الحمار لم يفسد بل هو على حاله تقديرًا منا وحكمة، وانظر إلى حمارك الذي مات وتفتت أوصاله وفنيت أجزاؤه كيف نحييه أمامك عضوًا عضوًا وجزءًا جزءًا، ونركب عظامه بعضها على بعض، ثم نجعل اللحم عليها، ثم ننفخ فيه الروح فهزَّ الحمار رأسه ومشى على رجليه ونهق، فصاح عزير وهو يشاهد ما أذهله وأدهش عقله: أشهد أن الله قادر على كل

شيء، وأنه وحده المحيي والمميت، وأنه وحده المستحق للعبودية المستأهل للألوهية، المتفرد بالربوبية، فلا إله إلا هو ما أعظمه وأجله، فما أعظم هذه البراهين وأوضح هذه الأدلة.

﴿٢٦٠﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

واذكر - يا محمد - سؤال إبراهيم ربه أن يريه كيفية إحياء الأموات، فقال له ربه: أما تصدق يا إبراهيم أنني قادر على إحياء الميت أم أنك في شك؟ فقال إبراهيم: بلى يا رب أنا مصدق أنك قادر على ذلك لكن أريد أن أشاهد الكيفية، فليس الخبر كالمعاينة؛ ليزداد يقيني، فأمره ربّه بأخذ أربعة من أنواع الطيور يضمها إليه، ثم يقطعها ثم يخلط بعضها ببعض، ثم يجعل على كل جبل قطعة من اللحم المختلط، ثم نادِ في الطير تأتِ إليك تسعى بعدما ردّ الله فيها أرواحها، فشاهد بعينه كيف أحيا الله الموتى وتيقن ذلك، واعلم يا إبراهيم أن من أحياها عزيز لا يعجزه شيء، ولا يغالبه أحد ولا يمتنع عليه أمر، حكيم يضع كل أمر موضعه، وكل شيء مكانه بحكمة وحسبان.

﴿٢٦١﴾ ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

مثل المتصدقين بأموالهم في الجهاد وسائر أنواع البر وطرق الخير والإحسان كافة، مثل حبة قمح زُرعت في أرض خصبة، فأنبتت الحبة سبع سنابل، في كل سنبلة مئة حبة، فالمجموع سبع مئة حبة وهذا مثل أجر من تصدق، فإن الله يضاعف له الحسنات إلى سبع مئة إلى أضعاف كثيرة، فإذا كانت هذه الأرض المِعْطَاء فكيف برب الأرض والسماء وهو أكرم من أعطى؛ لأنه - سبحانه - يربي الصدقة لصاحبها ويضاعفها بقدر نية المنفق وصدقه؛ لأنه واسع يعطي عن غنىً، عليم بمن يستحق العطاء وبما أسر العبد وأخفى.

﴿٢٦٢﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هؤلاء المتصدقون الذين يضاعف لهم الله الثواب يريدون بصدقتهم وجه الله، ولا يلحقون صدقتهم بالمن على السائل فيمتنوا عليه ويجعلونها يدًا لهم عنده يذكرونها له تبكيتًا ويذكرونه بها تفضّلاً عليه، وهذا فيه إذلال للسائل، ولا يلحقون بصدقتهم أذىً للسائل مثل انتهاره واستثقاله وزجره ورفع الصوت عليه ونحو ذلك، بل يحمدون ربهم أن جعلهم مقصودين لا قاصدين، يحتاج إليهم الناس ولا يحتاجون إلى الناس، وهذه نعمة قلَّ من يعرف قدرها، فمن تصدق مخلصًا لوجه الله ولا يمنُّ على السائل ولم يؤذه فأجره عند ربه كبير، وثوابه عظيم، ولا يخاف مما يستقبله من أهوال، فهو آمن لحسن سعيه، ولا يحزن من تبعات ما خلفه من أعمال، فهو ناجٍ لصلاح حاله، وسر السعادة في الأمن من مَخُوف منتظر والسلامة من أمر محزن سبق.

﴿٢٦٣﴾ ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾

رد السائل بقول لين، وخطاب جميل، وعفو عما بدر منه، ومسامحة له على ما يحصل منه من إلحاح، أحسن من صدقة مقرونة بسوء أدب المعطي وفظاظته وغلظته على السائل من زجر وانتهار، فقول جميل أحسن من عطاء ثقيل، وخطاب لين أجمل من هبة بإهانة، والله - تعالى - غني عما في أيدي الخلق؛ لأنه واهب الرزق، ولكنه أمر بالعطية ليثيب المعطي وهو حليم على من عصاه لا يعاجل بالأخذ، ولعل في قوله: «غني» تذكيرًا للمعطي أن الله أعطاه، وتذكيرًا للسائل أن يسأل ربه ومولاه، وفي قوله: «حليم» تنبيه للمتصدق أن يحلم على من سأله وإخبار أنه يعفو عما بدر منه إذا استغفر.

﴿٢٦٤﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

أيها المؤمنون المتصدقون لا تذهبوا أجر صدقتكم على السائل بالمن عليه وإذلاله بالعطية أو الإساءة إليه بكلام غليظ أو فعل فظ، فيذهب وزر ما فعلتم بثواب ما أعطيتم، فيكون فعلكم فعل المنافق في ذهاب الأجر، فإن المرائي لا يريد الله بعمله بل يطلب ثناء الناس والجاه لديهم؛ لأنه لا ينتظر الآخرة فيرجو ثوابها ويخاف عقابها، وإنما قصده الدنيا، فمثل هذا المرائي بنفقته كمثل حجر أملس عليه تراب قليل نزل عليه مطر قوي فأذهب التراب وأبقى الحجر فليس للغيث أثر، فالمنافق أظهر للناس الحسن كالتراب على الحجر، فلما بليت السرائر وانكشفت الخوافي إذا هو مراء، فأذهب الرياء أجره كما أذهب المطر التراب، فبقي محرومًا من الخير والأجر كالصخر لا نفع فيه ولا بركة، فالمنافق لا يجد ثمرة ما أعطى ولا نفع ما قدم؛ لأنه أنفق رياء فذهب عمله هباء، والمنافق كافر بربه في باطنه فكيف يهديه إلى السداد، وكيف يدله على الرشاد؛ لأن الله لا يهدي إلا تقيًّا ولا يرشد الكافر الشقي.

﴿٢٦٥﴾ ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

والذين يتصدقون لوجه الله وطلب الثواب من الله وليزدادوا هدى وثباتًا على الإيمان، أو أن نفوسهم المطمئنة تدفعهم إلى الصدقة لثباتها على الحق، فهؤلاء مثلهم كمثل بستان أخضر كثير الشجر طيب التربة حسن الثمر بمكان مرتفع من الأرض، وهو أحسن الأمكنة للزراعة، حيث تضربه الشمس ويباشره الهواء ثم أصابه غيث غزير فأثمر البستان ضعف نتاجه مرتين، فإن لم يباشره الغيث المدرار كفاه الندى الخفيف مع الهواء اللطيف؛ لأن المحل خصب، والمكان مرتفع يداخله الهواء ويباشره الضياء، وهذا مثل المؤمن الصادق في نفقته، يعظم الله صدقته لإخلاصه وصدقه وسخائه وحبه لمرضاة ربه ومسارعته فيما يحبه مولاه، والذي يميز النيات ويعلم السرائر هو الله وحده؛ لأنه بصير بالأعمال مطلع على الأحوال، يعلم المخلص من المرائي.

﴿٢٦٦﴾ ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

هل يحب أحدكم أن يكون له بستان مثمر بالنخيل والأعناب، وهما أنفع الأشجار وأبرك الثمار، وفي البستان أنواع الفواكه والخضراوات، وفي البستان نهر عذب سائح جار يتدفق بالماء بلا مشقة ولا تعب، وصاحب البستان شيخ كبير، ضعيف عن الكد والتكسب لعياله الضعفاء وأطفاله الصغار وهو ينتظر ثمر البستان، وفجأة هبت على البستان عاصفة فيها نار ودمار، فاحترق البستان كله وذهب الشجر جميعه، وهذا المثل ذروة الحسن وغاية البهاء ونهاية الإشراق، وهو مثل من عمل عملاً صالحًا ثم أفسده بالرياء وأذهبه بالمعاصي، فلما أتى إلى عمله يوم الفقر الأكبر أحوج ما يكون إليه وجده هباءً منثورًا. وسعيًا باطلاً؛ لفساد نيته وخبث طويته وقبح سريرته، فالله يوضح لنا الأمثال لعلنا نتدبر ونعتبر، فنخاف ونحذر، ونخلص ونتصدق؛ فالرياء يتسلط على عمل الإنسان كما يتسلط الحريق على البستان.

﴿٢٦٧﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

أيها المؤمنون، تصدقوا من الحلال الطيب الذي بذلتم الجهد في كسبه من التجارة والعمل، وتصدقوا مما أنبتته الأرض من الحبوب والثمار، ولا تقصدوا الرديء الرخيص فتعطوه الناس، وأنتم لا تقبلونه لرداءته إلا بالمسامحة وغض الطرف عنه، فكيف تتصدقون على غيركم ما لا ترضون لأنفسكم، وفيه معاملة الناس معاملة النفس، واختيار الأجود في الصدقة، وتيقنوا أن الله غني عن صدقاتكم فهي لأنفسكم، وشاكر لمن تصدق منكم، أو غني عمن بخل، حامد لمن أعطى.

﴿٢٦٨﴾ ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾

عليكم بالصدقة والإنفاق في وجوه الخير، ولا تصدقوا وسوسة الشيطان وأمره لكم بالبخل خوفًا من الفقر، ووعد الله أصدق بغفران ذنوبكم إذا أنفقتم؛ لأن الصدقة تكفّر الذنب، ثم إن الله يخلف عليكم ما أنفقتم، وفي الحديث: «**ما نقصت صَدَقَةٌ من مال، بل تزده بل تزده**»، وانظر كيف قابل وعد الشيطان بالفقر بالوعد بالغنى، وأمره بالفحشاء بالوعد بالمغفرة، فخير الدنيا والآخرة عند الله؛ لأنه واسع الفضل لا تعجزه مسألة السائلين، كثير الإحسان لعموم الناس أجمعين، وهو عليم بمواضع العطاء ومن يستحق الثواب والثناء.

﴿٢٦٩﴾ ﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

والله – سبحانه – يعطي الفقه في الدين، والفهم في المسائل، والعمل النافع والبصيرة في الأمور والسداد في القول والعمل من يشاء له الخير من عباده، ومن يختصه بالفضل من خلقه، ومن يعطى هذه المكاسب الربانيّة والمواهب الإلهية، فقد أُعطي الخير الكثير والفضل الوفير والنصيب الكبير. وما يستفيد من الآيات ويتعظ بالأمثال إلا نيّر البصيرة، حيّ القلب، صحيح الفهم، أما مظلم الفؤاد، سفيه الإدراك فلا تذكّر ولا اعتبار، فلا علم نافع ولا عمل صالح.

﴿٢٧٠﴾ ﴿ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴾

وما تصدقتم به لوجه الله، أو ألزمتم أنفسكم به في سبيل الله فالله سوف يثيبكم عليه؛ لأنه عالم به يحفظه لكم ليوفيكم إياه وأنتم أحوج ما تكونون إليه، أما الظالم الذي منع ما أوجب الله عليه من زكاة في ماله ونحوها فلن ينصره أحد غدًا، ولن يمنعه أحد من عذاب الله، ولكل ظالم عاقبة سيئة ومصير وخيم.

﴿٢٧١﴾ ﴿ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾

إن أعلنتم صدقاتكم بلا رياء ولا سمعة ففعل حسن وتصرف جميل، لعله يقتدي بكم غيركم، وإن أسررتم الصدقة للفقراء فهو أفضل وأبعد عن الرياء والسمعة وأسلم لحال من تصدقتم عليه، والله – سبحانه – سوف يمحو عنكم الذنب بالصدقة؛ لأنها تكفّر الخطيئة، وهو – تعالى – خبير بالخفايا والسرائر، عالم بالنيات، يعلم من عمله ومن أظهره ومن أسرّ قوله ومن أعلنه.

﴿٢٧٢﴾ ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴾

ليس عليك – يا محمد – هداية الناس، إنما عليك البلاغ، أما الموفق للهداية حقيقة فهو الله وحده؛ لأنه يعلم من يستحق الهداية ومن لا يستحق، فهو يصطفي لدينه ويختار كما أراد – تعالى – والذي تتصدقون به من الأموال عائد إليكم بالثواب، فالمنّة لله وحده، فأنتم بصدقاتكم تحسنون إلى أنفسكم، فاقصدوا الله بعملكم واحذروا الرياء والسمعة، واعلموا أن كل نفقة أنفقتموها لوجه الله فهي مضاعفة عند الله، ولن يذهب الله من حسناتكم شيئًا يوم القيامة؛ لأنه عادل لا يظلم ولا يهضم.

﴿٢٧٣﴾ ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾

وتصدقوا على الفقراء الذين منعهم الجهاد في سبيل الله من الكسب لطلب الرزق كالتجارة ونحوها؛ لأنهم حبسوا أنفسهم للغزو، فالذي لا يعرف حقيقتهم يظنهم لتجملهم وعفتهم أغنياء وهم في الحقيقة فقراء، فأنت – أيها

المتصدق - تعرف هؤلاء بعلاماتهم، فأثر الفاقة والفقر لا يخفى على اللبيب، وهم لشدة حيائهم وعفة نفوسهم لا يُلحون في السؤال، واعلم - أيها المتصدق - أن كل شيء تنفقه لوجه الله فهو محفوظ فلا تخف من ضياعه، والله يعلم النيات فيطلع على المخلص في صدقته والمرائي.

﴿٢٧٤﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هؤلاء البررة المتصدقون الذين يعطون أموالهم لوجه الله في كل وقت من ليل أو نهار، وفي كل حال علانية وخفية محفوظ أجرهم عند ربهم، وهم مع ذلك لا يخافون ما أمامهم من أهوال العرض الأكبر ولا يحزنون على ما فاتهم في الحياة الدنيا الفانية، فقد أمَّن الله خوفهم وأذهب حزنهم.

﴿٢٧٥﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أكَلَةُ الربا حينما يبعثون في قبورهم للحساب يخرجون كالمصروع من مس الجان وتلبس الشيطان، تضطرب حركاتهم وتختل مشيتهم؛ لأن أثر الحرام في بطونهم، والكسب الخبيث في أجسامهم، فالله عاقبهم بهذا العقاب؛ لأنهم لجهلهم وفجورهم قالوا: لا شيء علينا في الربا؛ لأنه مثل البيع تمامًا كلها على وجه العِوض والتراضي؛ عنادًا منهم واستخفافًا، فردّ الله عليهم كذبهم بأن البيع حلال لما فيه من تبادل المصالح وتداول المنافع بلا ضرر ولا غرر، أما الربا فإنه إضرار بالغ بأموال الناس، فأناس يكدحون لجمعه ثم يأتي أناس لسلبه منهم بطريق محرم، وأناس اضطرتهم الحاجة إلى قرض فضوعف عليهم ظلمًا وعدوانًا، فالذي وصل إليه النهي من الله ورسوله ﷺ فتاب من الربا فالله يتجاوز عنه ما كان قبل النهي ومرده إلى ربه يقضي فيه ما شاء، ومن استحل الربا بعد النهي فهو معاند لربه محارب لمولاه، فجزاؤه الخلود في نار جهنم.

﴿٢٧٦﴾ ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾

والله - سبحانه - يذهب بركة الربا ويجعل عاقبته إلى تلف وخسارة في المال والنفس؛ لأنه بُني على حرام، وبالمقابل يُنَمِّي الله الصدقة ويبارك فيها، فالربا في الظاهر زيادة وهو نقصان، والصدقة في الظاهر تنقص المال وهي تزيده وتنميه، والله يكره المعاند لآياته، المعترض على شرعه، الذي تهتك في الحرمات، وأكثر من المخالفات، وأعرض عن التَّواب، فالكافر تارك للطاعة معرض عن الأمر، والأثيم ساقط في المعاصي مرتكب للنهي.

﴿٢٧٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وبعد ما ذكر العصاة من أهل الربا أتى لذكر الصالحين المفلحين الذين أحسنوا الاعتقاد وجوّدوا العمل فآمنوا وأصلحوا، وحافظوا على صلاتهم كما شرعت، وأحسنوا أداءها، وزكوا أموالهم طيبة بها نفوسهم، فهؤلاء الأبرار لهم الأجر العظيم والثواب الجسيم من ربهم الرحمن الرحيم، ولا يخافون مما ينتظر العصاة أمامهم، ولا يحزنون من تبعة ما خلفوا في الدنيا وراءهم، بل هم في أمن وسرور، وقرة عين وحبور.

﴿٢٧٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أيها المؤمنون، خافوا الله وراقبوه، واتركوا ما بقي من الربا عند الناس إن كنتم صادقين في التوبة ممتثلين أمر الله طائعين له، فالمؤمن يفعل المأمور ويجتنب المحذور.

﴿٢٧٩﴾ ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

فإن أبيتم إلا الربا ولم تتوبوا منه، فانتظروا حربًا من الله ورسوله من الأمراض والكوارث وفساد الذرية والفتن ونقص الفهم، والعذاب في الآخرة، وإن تبتم من الربا فلكم أصول الأموال بلا زيادة، فلا تأخذوا مال الغير ظلمًا ولا تتركوا أصول أموالكم فيلحقكم الضرر.

﴿٢٨٠﴾ ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

إذا أُعْسِر المقترض فأمْهِلُوه حتى ييسّر الله له السداد، وإن أسقطتم بعض حقكم عنه فهذا أجمل وأحسن إذا علمتم أن الله سوف يجازي المحسن بإحسانه فيتجاوز عنه كما تجاوز عن المعسر.

﴿٢٨١﴾ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

خافوا يومًا تعودون إلى ربكم فيه فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، لا ظلم في ذلك اليوم بزيادة سيئات ولا هضم بنقص حسنات.

﴿٢٨٢﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۖ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

أيها المؤمنون، إذا كان لكم مال على أحد، أو تبايعتم إلى زمن معلوم فاكتبوا بينكم كتابًا لتحفظوا به الحقوق ولا تقعوا في الخلاف، واختاروا كاتبًا مسلمًا أمينًا عدلاً ضابطًا، وإذا دعي هذا الكاتب فلا يَعْتَذِر بل يحتسب الأجر؛ لأن الله هو الذي علمه الكتابة وعليه أن يكتب الكتاب، والذي يملي عليه نص الوثيقة هو المدِين الذي وجب في ذمته المال؛ ليكون مقرًّا على نفسه بما أملى، ويشهد الشهود بإملائه، وليخف ربه فلا يزوّر في إملائه ولا يبخس في أدائه، فإذا كان من عليه الدين ضعيف العقل أو طفلاً أو هرمًا أو أبكم فوليُّه يقوم مقامه في الإملاء لا يزيد على المدِين ولا ينقص من حق الدائن، وأشهدوا على الوثيقة شاهدين عدلين لضمان الحق، فإن لم يوجد إلا رجل فهذا الرجل يشهد وتشهد معه امرأتان من أهل الديانة والأمانة، وإنما جعل امرأتان مكان رجل لغلبة النسيان على النسوان، فإذا نسيت واحدة ذكرتها الأخرى؛ لأن مسائل المال يغلب على معرفتها الرجال، وإذا لزم الأمر واحتيج إلى شهود فحرام عليهم الامتناع عن أداء شهادتهم لئلا تذهب حقوق الناس، ولا يصيبكم ضجر ولا سأم من كتابة الدين قلَّ أو كثر؛ لأن هذه الكتابة أعدل في الحكم، وتحفظ شهادة الشهود، وأبعد عن الشك في مقدار الدين والأجل، ولئلا يقع اختلاف وخصومة، لكن إذا كانت السلعة حاضرة والثمن نقدًا فليس عليكم إثم في عدم الكتابة، لزوال المقتضي من خوف ضياع المال، ووقوع الجحود من المدين، وأشهدوا على وثائق البيع وبخاصة إذا كان المال كثيرًا والسلعة غالية من عقار ودور وصفقة تجارية أو دخول شركات ومضاربات ونحوه، ولا يلحق صاحب الحق بمن كتب الوثيقة أو شهد عليها ضررًا كأن يكلفه التنقل معه بلا أجرة أو يدعوه في وقت شغله أو راحته فيشق عليه، فإن حصل منك ضرر لكاتب أو شهيد أو مطل بدين أو مخالفة لمقتضى العقد فهذا من العصيان ومخالفة الديان، وإذا راقبتم الله وأطعتموه واجتنبتم معاصيه فتح عليكم بالعلم النافع والفقه في الدين؛ فهو العالم بكل دقيق وجليل، المطلع على كل صغير وكبير، لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عن علمه شيء.

﴿٢٨٣﴾ ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

وإذا سافرتم وتبايعتم ولم تجدوا كاتبًا فليأخذ صاحب الحق من المدين رهنًا ليحفظ به ماله يقوم مقام الوثيقة المكتوبة، فإن وثق صاحب الحق في ذمة المدين وأمانته فلا داعي للرهن، فعلى المدين تقوى الله في حفظ مال الدائن الذي ائتمنه على ماله فليردَّ الدَّين عند تمام الأجل، وإذا طلب منكم الأداء بالشهادة فأدوها كما هي بلا تحريف ولا تبديل ولا كتمان، ومن كتم الشهادة فهو فاجر القلب خاوي الضمير عديم التقوى، والله سوف يحاسب كلاً بما فعل؛ لأنه عالم بالضمائر، مطلع على السرائر، يعلم الأعمال والأقوال والأحوال.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

كل ما في الكون لله ملكًا وخلقًا وعبيدًا وهو الخالق الرازق الذي يدبرّ الأمر ويصرف الأحوال، وهو وحده القائم بشؤونهم - سبحانه - ومن أظهر سوءًا أو أسره فالله عالم به مطلع عليه؛ لأن الجهر والسر عنده واحد، فيحاسب كلاً بما كسب على قدر ذنبه، يحاسب بعلم ويقضي بعدل.

وله - سبحانه - المشيئة المطلقة، من شاء غفر له ذنبه وتجاوز عن جرمه، ومن شاء أخذه بإثمه وجازاه بعصيانه، لحكمة قضاها ومصلحة قدرها، فغفرانه فضل وعذابه عدل، نفذت قدرته وغلب أمره، ومضى قضاؤه، لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون.

﴿٢٨٥﴾ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾

صدّق محمد وأصحابه وأتباعه بما في القرآن والسنة من وحدانية لله وألوهية له سبحانه، وصدَّقوا بالملائكة والكتب والرسل كافة كما جاء بها الوحي، ولم يصدقوا ببعض الرسل ويكذبوا ببعضهم كما فعل أهل الكتاب بل آمنوا بالجميع، واستجابوا قائلين: يا ربنا سمعنا قولك وأطعنا أمرك، فإذا حصل منا بعد الاجتهاد تقصير فنسألك مغفرة منك تمحو بها الذنب، وتعفو بها عن السيئة؛ لأنا عبيد خطّاؤون، فليس لنا رب سواك، ولا إله غيرك، وسوف تجمعنا ليوم لا ريب فيه، فلا مفرّ إلا إليك، ولا شكوى إلا إليك.

﴿٢٨٦﴾ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

فلما استجابوا وأنابوا بشّرهم بوضع الآصار والأغلال، فأخبرهم أنه لن يشق عليهم في الأوامر والنواهي بل على قدر جهدهم وطاقتهم رحمة منه بهم، وكل نفس تثاب على قدر صلاحها وتعاقب على قدر سوئها بلا زيادة ولا نقص، وسألوا ربهم قائلين: يا ربنا لا تحاسبنا على نسياننا وخطئنا فنحن بشر مقصرون، ولا تكلفنا ما يشق علينا فنعجز كما فعلت الأمم قبلنا الذين تحملوا الشرائع ثم تركوها، ونسألك أن لا تبتلينا بالمكاره والمصائب فوق قدرتنا فنجزع ولا نصبر، فنحن عبيد ضعفاء، ولا توجب علينا فرائض وحدودًا لا نستطيع القيام بها، وامحُ ذنوبنا وكفّر سيئاتنا. واستر عيوبنا وعد بفضلك علينا، وارحم ضعفنا بعدم مؤاخذتنا، فأنت ربنا ومتولي أمرنا ومدبر شؤوننا ومصرف أحوالنا، والمولى ينصر وليه وأنت مولانا القوي، ونحن عبيدك المساكين الضعفاء، فانصرنا على عدوك وعدونا الذين حاربوك وكذّبوا رسلك وردوا دينك من المشركين وأهل الكتاب المكذبين، فالنصر من عندك يا ربنا يُرتجى، ونحن جندك فلا يُهزم من كنت مولاه، ولا يغلب من أنت نصيره.